كيف نُغيِّر ما بأنفسنا؟

طبعة مزيدة ومنقحة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هجري - ٢٠١٠ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٦٨٧٩م

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٨-٩٧٧-٤٤١-٧٨٧-٢

كيف نُغيِّر ما بأنفسنا؟

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدّمَة

رب يسِّر وأعِن يا كريم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الدعاة وسيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فما من عام يمر على أمتنا الإسلامية في وقتنا الحاضر إلا ويحمل معه جُرحًا جديدًا في جسدها يُضاف إلى جراحاتها السـابقة؛ فعام لأفغانستان، وعام للشيشان، وآخر للعراق...، أما فلسطين فجرحها يتجدد باستمرار ويزداد عمقًا بمرور الأيام.

هذه الجراحات كانت تحدث بالأمس في جسد الأمة ولا يكاد يشعر بها أحد، أما اليوم فالوضع يختلف، فمع انتشـار الفضائيات ووسائل الاتصال أصبح من السهل على كل مسلم أن يشاهد ما يحدث لإخوانه المسلمين المضطهدين في شتى بقاع الأرض من تقتيل وتشريـد وإذلال وانتهـاك للحرمات؛ مما يحرك الدمـع في المقل، ويعلق الأبصار بالسماء، ويطلق الألسنة بالدعاء. نسأل المولى عَزَّوَجَلَّ أن يكشف الغمة، ويفرج الكرب، ويُنزل نصره الذي طال انتظاره. لسان حالها يقول:

- هل من نهاية لما نحن فيه؟
- هل لهذا الليل من آخر؟
- متى نصرك يا الله؟

ورغم الدعاء والتضرع والاستغاثة بالله عَزَّوَجَلَّ، فإن الوضع مستمر على ما هو عليه، بل يزداد سوءًا في بعض الأماكن؛ مما حدا بالبعض لأن يتساءل: لماذا يتركنا الله هكذا أضيع من الأيتام على مائدة اللئام؟

- لماذا لا يستجيب الله دعاءنا ويرفع عنا هذا الذل والهوان؟
- أين أثر دعوات الثكالى والمظلومين من المسلمين في كل مكان؟
- إن لم يكن الآن فمتى -إذن- يكف الله بأس هؤلاء الذين كفروا؟

هذه الأسئلة وغيرها تتردد في أذهان الكثير من أبناء الأمة، منطلقة من يقينها بأن الله عَزَّوَجَلَّ قادر على تغيير ما نزل بساحتنا وحاق بنا في لمح البصر. أليس هو القائل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾؟ [يس:٨٢].

أليس هو سبحانه الذي أغرق فرعون وجنده، وأهلك عادًا وثمود؟ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر:٦-١٤].

أليس هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي استنصره نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فاستجاب له ونصره نصرًا مؤزرًا؟ ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١١-١٤].

فلماذا إذن لا ينصرنا الله عَزَّوَجَلَّ وقد بُحَّت أصواتنا بدعائه؟

لماذا تأخر المدد الإلهي ونحن في مسيس الحاجة إليه اليوم قبل الغد؟

فإن قيل: إن هذا المدد لا يتنزل إلا على من يســتحقه.. كان السؤال: فما المطلوب منا أن نفعله لنكون أهلًا له؟

أين نضع نقطة البداية لطريق النصر والتغيير؟ وكيف نبدأ؟

حول الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها كانت هذه الصفحات.

والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢].

• • •

القـــادر المقتـــدر

أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه وعلى لســـان نبيه ﷺ بأنه: «**حَيٌّ قَـــيُّومٌ**»، ومن مظاهر وآثـــار قيوميته أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قائم على شـــئون جميع خلقـــه: ﴿**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ**﴾ [الروم: ٢٥].

فلا يســـتطيع أحد في الســـماوات أو في الأرض أن يُقيم نفســـه بنفسه، أو يتولى تصريف أموره ولو طرفة عين. فالسماوات مرفوعة بغير عمد، يمسكها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولو تركها لســـقطت على الأرض: ﴿**وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ**﴾ [الحج: ٦٥].

ولو لم يحرك الله عَزَّوَجَلَّ الهواء ما تحرك، ولظلت السحب في مكانها، فما نزل مطر، أو نبت زرع، ولا كانت حياة: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ**﴾ [الأعراف: ٥٧].

لا حول ولا قوة إلا بالله

فنحن جميعًا بدون الله عَزَّوَجَلَّ لا قيمة لنا ولا وجود، ولِـــمَ لا وهو سبحانه يمدنا بأســـباب الحياة لحظة بلحظة، ولو تركنا لهلكنا!! فالقلب مثـــلًا يحتاج إلى إمداد منه -سبحانه- بالقدرة على ضخ الدم للجسم سبعين مرة في الدقيقة الواحدة، ولو توقف

المدد لتوقف القلب وانتهت الحياة، والعضلات تحتاج إلى مدد من الله متواصل لتستمر في الانقباض والانبساط لتنشأ عن ذلك الحركة والمشي والقيام والقعود: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢].

وهكذا كل أجهزة الجسم لا تستطيع أداء وظائفها إلا به سبحانه.

معنى ذلك أنه لا يمكننا أن نتحرك حركة أو نتنفس نفسًا، ولا ننطق بكلمة إلا من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم: ٤٣]، ولو تخلى عن عباده طرفة عين لهلكوا جميعًا، يستوي في ذلك المؤمن والكافر؛ فلا يوجد لأحد في هذا الكون «قوة ذاتية» يستطيع من خلالها أن يعتمد على نفسه في تصريف أموره والاستغناء عن الله: ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٦٥].

العليم الرقيب

ومن البديهي أن قيوميته سبحانه على عباده تستدعي اقترانها بعلمه وإحاطته التامة بهم: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١].

ومع علمه التام بعباده وإحاطته بهم جميعًا، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رقيب عليهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد: ١٠].

القدرة الإلهية

ومع قيومية الله وإحاطته بجميع خلقه، فهو سبحانه قادر مقتدر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يفعل ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: ٥٠].

وهو سبحانه لا يخاف من شيء -حاشاه- ولا يخشى عقبى شيء من أمره، كيف وهو صاحب هذا الكون والقائم عليه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾ [الشمس: ١٤، ١٥].

لا يمكن لأحد أن يفر منه، أو يختفي عنه، أو يتحدى إرادته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ [فاطر: ٤٤].

من الذي أهلك فرعون الطاغية وأغرقه هو ومن معه بعد أن كان يُنكل ببني إسرائيل ويسومهم سوء العذاب؟! ومن الذي قطع دابر قوم لوط، وأهلك ثمود؟

ومن الذي أرسل الطير الأبابيل على أصحاب الفيل الذين أرادوا هدم الكعبة؟

هل نفعت عادًا قوتها المزعومة حينما جاءها العذاب من الله؟ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾ [فصلت: ١٦].

إن أمر الله ومشيئته نافذة أراد البشر ذلك أم لم يريدوا: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود: ٧٦].

ما شاء الله كان

هذه الحقائق تؤكد أن كل ما يحدث لنا من ذل وهوان وهزائم ونكسات فبعلم

الله وإذنه ومشيئته: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فما فعله فرعون ببني إسرائيل ما كان ليحدث لو لم يأذن به الله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

وعندما كلف الله عَزَّوَجَلَّ موسى وأخاه هارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بالرسالة خافا من بطش فرعون بهما وطغيانه عليهما: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، فماذا قال الله لهما؟ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

أخرج الإمام أحمد في الزهد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما بعث الله عَزَّوَجَلَّ موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ إلى فرعون قال: لا يغركما لباسه الذي ألبسته، فإن ناصيته بيدي، ولا ينطق ولا يطرف إلا بإذني[(١)].

من هنا يتأكد لدينا أن كل قذيفة خرجت من أسلحة أعدائنا لتصيب طفلًا أو امرأة أو شيخًا، ما كانت لتصيب هدفها إلا بإذن الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

البداية من العبد

ومع هذه القدرة المطلقة والمشيئة النافذة التي لا تستطيع أي قوة في الأرض مهما كان حجمها أن تقف أمامها فإنها لا تتنزل إلا على من يستحقها.

فهي لا تتنزل بالمدد والنصر على الفئة المؤمنة إلا إذا استوفت الشروط المؤهلة لذلك، والتي يأتي على رأسها أن يتغير حالها إلى الحال الذي يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، وتترك

(١) الزهد للإمام أحمد (برقم: ٣٤٠) واللفظ له، بأتم من هذا ونحوه في حلية الأولياء (١/ ١١).

مـا يبغضه، كـما قـال سـبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

تأملات في آية التغيير

والجدير بالذكر أن آية التغيير السـابقة والتي جاءت في سورة الرعد قد سبقتها آيات وتلتها آيات تتحدث عن مظاهـر القدرة الإلهية المطلقة والتي نرى الكثير منها بأعيننا، كقولـه تعـالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعـد: ٣]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعـد: ٨]، ويمضي السياق في السورة ليعدد مظاهر القدرة الإلهية: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

وفي خضم هذه الآيات تأتي آية التغيـير: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ويستمر السـياق بعدها ليؤكد على نفس المعنى الذي بدأت به السورة: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١١-١٣].

فما مناسبة وجود آية التغيير بين هذه الآيات؟ وما الرابط بينها؟

هناك -بلا شك- دلالات كثيرة من وجود هذه الآية وسط الآيات التي تتحدث عن القدرة الإلهية المطلقة، ولعل من هذه الدلالات أنها تحمل لنا جميعًا رسالة تقول:

إن الله عَزَّوَجَلَّ ذو قدرة مطلقة، وعلم لا حدود له، وقوة لا يمكن تخيلها، ومشيئة نافذة، والدليل على ذلك ما نراه بأعيننا من سماء مترامية الأطراف مرفوعة بلا عمد، ومن الأرض الممدودة، ومن البرق والصواعق المخيفة.

هذا الإله العظيم الذي ترون آثار قدرته بأعينكم يستطيع -بلا شك- أن يغير ما بكم من ذل وهوان وسوء حال في لمح البصر. ومع سهولة ذلك ويسره عليه فإنه لن يفعله إلا إذا بدأتم أنتم بتغيير ما بأنفسكم وأصبحتم على الحال الذي يرضيه.

فليُفعل بنا إذًا ما يُفعل، وليزدد بنا الذل والهوان، ولتشتد الصرخات والآهات، ولتكثر الجراح في جسد الأمة، وليضعنا أعداؤنا تحت أقدامهم، فلن يغير الله ذلك كله، ولن ينزل نصره علينا، ويعيد لنا مجدنا الضائع إلا إذا بدأنا نحن بتغيير ما بأنفسنا.

الأمل في الله وحده

> **من ينظر ويتفحص ما عند أعدائنا من إمكانات مادية، وتكنولوجيا متطورة، وأسلحة دمار شامل، ثم يقارن ذلك كله بما نملكه فقد يصيبه الإحباط، أو يتسرب إلى نفسه اليأس، فلا وجه للمقارنة بيننا وبينهم.**

ومن ناحية أخرى فواقع الأمر يخبرنا بأنه لا يوجد أمل حقيقي في اللحاق بهم؛ لأنهم لن يسمحوا لنا بامتلاك أسباب القوة ولا كل ما هو جديد، فالمساحة التي أتاحوا لنا التحرك فيها محدودة، ومهما اجتهدنا فيها فسنكون دومًا في ركب التخلف، وأذيال الأمم.

هذا الواقع نعلمه جميعًا؛ مما يجعل البعض منا يعتبر الحديث عن عودة الخلافة الإسلامية وأستاذية العالم مرة أخرى ضربًا من ضروب الخيال وأحلام اليقظة.

نعم هذا حقيقي إذا ما كانت الحسابات «المادية فقط» هي الحاكمة لهذا الأمر، أما في حالة وجود القوة الإلهية الجبارة فستنقلب المعادلات، وستتغير الموازين، وتتلاشى القوى المزعومة.

فإن كنت في شـــك من هذا فتأمل معي أثر هذه القوة حين انحازت لرسول من رسل الله والفئة القليلة التي آمنت معه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ٩-١٤].

تلـــك القوة الإلهية هي التـــي أدارت معركة بدر لتنصر فئـــة قليلة عددًا وعدة، ولكنها كبيرة بإيمانها وصـــدق توجهها إلى ربهـــا: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

القوة الإلهية هي التي هزمت الأحزاب دون ستار من الأسباب البشرية: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

إذن فلا أمل لنا إلا باســـتدعاء تلك القوة التي لا تُقهر، والتي لا تقف أمامها أي أسباب مهما عظُمت.

هل نترك الأسباب؟

ليس معنى القول بأن أملنا في الله وحده أن نترك الأســـباب المادية بدعوى عدم جدواها، بل المطلوب هو العكس، علينـــا أن نملأ كل فراغ يتاح أمامنا، ونتغلغل في

كل القطاعات، ونجتهد غاية الاجتهاد في امتلاك أسباب القوة كما طالبنا الله عَزَّوَجَلَّ بذلك: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وعلى قدر اجتهادنا في الأخذ بما يتاح أمامنا من أسباب نكون قد حققنا شرطًا مهمًّا من شروط النصر والتغيير، مع الأخذ في الاعتبار أن الأسباب بعينها لن تحقق لنا النصر: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، واجتهادنا في تحصيلها يأتي امتثالًا لأمر الله، وتنفيذًا لمقتضى سنته التي ربطت الأسباب بمسبباتها. فمن يريد السفر من مكان إلى مكان آخر فعليه اتخاذ سبب ووسيلة يسافر من خلالها مهما كان صلاحه وتقواه. هذه الوسيلة في حقيقتها لا تملك القدرة على السير بهذا الشخص وتوصيله إلى المكان الذي يريد، فما هي إلا ستار وشكل تتنزل من خلاله القدرة الإلهية، والقرآن مليء بالآيات التي تقرر هذه الحقيقة، كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: ٤١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وعندما عرض القرآن قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والسفينة التي ظل فترة طويلة يصنعها بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ ليستخدمها عند حدوث الطوفان فينجو بها هو ومن معه.. هذه السفينة يخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحقيقتها وأنها لا تملك قدرة ذاتية تمكنها من السير في البحر، فما هي إلا ألواح من الخشب، ومسامير من الحديد، أما الذي يسيرها ويمدها بالقدرة على الحركة فهو الله وحده لا شريك له. ويقرر القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤].

فلا بد من وجود السبب لتتنزل من خلاله القدرة الإلهية، وفي نفس الوقت فإن

السبب لا قيمة له بدون المدد الإلهي: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧].

تأمل معي ما حدث للصحابة وقد نفد ماؤهم وأرادوا الوضوء والشرب، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بذلك، فماذا فعل عليه الصلاة والسلام؟

طلب منهم إحضار ما تبقى عندهم من ماء، ثم وضع فيه أصابعه الشريفة فنبع من بينها الماء ليشرب الجميع ويتوضأ[١].

فهنا كان الماء القليل ستارًا وشكلًا تنزَّل من خلاله الفيض الإلهي.

> **إذن فعلاقتنا بالأسباب علاقة استجداء للمدد الإلهي الذي يتنزل من خلال وجودها، فالنوم سبب يتنزل من خلاله المدد الإلهي بالشعور بالراحة وتجديد النشاط، وشرب الماء سبب يتنزل من خلاله المدد الإلهي بالإرواء... وهكذا.**

نأخذ بالأسباب ولا نتعلق بها

فإن كان وجود الأسباب ضروريًّا لظهور القدرة الإلهية، فإن هذا ليس معناه التعلق بها، وتضخيمها، بل علينا أن نضعها في حجمها المناسب والمحدود، وإلا

(١) أحاديث نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ كثيرة منها: ما رواه البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**اطْلُبُوا مَنْ مَعَهُ فَضْلُ مَاءٍ**» فأتي بماء فصبه في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ. البخاري (برقم: ٣٥٧٩) كتاب الأنبياء (المناقب) باب علامات النبوة في الإسلام، الترمذي (برقم: ٣٦٣٣) كتاب المناقب باب في إثبات نبوة النبي ﷺ، النسائي (١/ ٦٠ برقم: ٧٧) في الطهور باب الوضوء من الإناء.

صارت حجابًا يحجب التأييد والنصر الإلهي، وذلك عندما يتعلق بها الشخص ويظن أنه يُنصر بها، فتصير شكلًا من أشكال الشرك بالله ينافي كمال التوحيد ومقتضاه.

وفي المقابل، فإن من يترك الأسباب وهو قادر على تحصيلها ظنًّا منه أنه إذا توجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بطلب ما يريد فإنه سبحانه سيلبي له طلبه دون الحاجة إلى الأسباب. هذا الشخص بهذا التصرف قد أساء الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، لأنه يريد منه سبحانه أن يخرق له السنن التي أقام عليها الأرض.

نعم قد يتعرض الواحد منا لمواقف تقلُّ فيها الأسباب أو تنعدم دون إرادة منه، كمن لم يستطع النوم ويريد إنجاز الكثير من المهام التي تحتاج إلى تركيز وصفاء ذهن. هنا انعدمت أسباب الراحة أو نقصت دون إرادة منه، فماذا يفعل؟ هل يقول: لأني لم أنم فلن أستطيع القيام بهذه الأعمال، أم يتجاوز الأسباب -التي لم تتح له- ويتوجه مباشرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ طالبًا منه العون والمدد بالقدرة على التركيز وحُسن إنهاء هذه الأعمال؟

لو تبنى الإجابة الأولى يكون تعلقه بالأسباب أكثر من تعلقه بالله عَزَّوَجَلَّ، ولو تبنى الإجابة الثانية تكون الأسباب بالنسبة إليه وسيلة تتنزل من خلالها القدرة الإلهية. والدليل على ذلك أنه لم ينزعج عند انعدامها أو قلتها، بل توجه إلى الله مباشرة طالبًا عونه ومدده، والأفضل من ذلك أن يكون حاله في وجود الأسباب كحاله عند عدم وجودها من تضرُّع وإلحاح على الله عَزَّوَجَلَّ وطلب العون والمدد منه سبحانه.

علاقة الأسباب المادية بالنصر

إن الواجب يحتم علينا أن نجتهد في تحصيل أسباب القوة ليتنزل نصر الله ومدده من خلالها دون تعلق بتلك الأسباب، أو اعتبار أن النصر يستلزم وجودها بقدر كبير،

وهذا ما كان يفهمه المسلمون الأوائل. فقد كانوا ينتصرون على أعدائهم وهم أقل منهم عددًا وعدة كما حدث في بدر والقادسية واليرموك وغيرها من المعارك الإسلامية الخالدة التي أظهرت القدرة والتأييد الإلهي للفئة المؤمنة مع قلة وجود الأسباب المادية معها. تأمل معي قوله تعالى:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣].

ولنعلم جميعًا بأننا قد نُعذر إذا ما قصرنا في اتخاذ جميع الأسباب المادية لأمور خارجة عن إرادتنا، ولكننا لا نُعذر في عدم تعلقنا بالله عَزَّوَجَلَّ وتغيير ما بأنفسنا؛ لأننا جميعًا نقدر على ذلك.

تغيير ما بالنفس من أهم الأسباب

إن كان قانون السببية من أهم القوانين الحاكمة للأرض، فإن السبب الأساسي الذي يستجلب النصر والتغيير هو تغيير ما بالنفس ونصرة الله عليها، وصدق التوجه إليه، وعدم التعلق بشيء سواه، كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ ﴾ [الزمر: ٣٦].

وعندما تُترك هذه القوانين ويتعلق العبد بالأسباب المادية ولا يتعلق بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنه قد يُخذل ولا يوفَّق، كما حدث للمسلمين في غزوة حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥].

من هنا يتضح لنا أن السبب المحوري للنصر والتغيير هو التعلق التام بالله عَزَّوَجَلَّ، وصِدْق التوجه إليه، وارتداء رداء العبودية له، وهذا لن يتم إلا من خلال تغيير ما بالنفس.

الخلاصة

وخلاصة القول: إن الوضع المزري الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية ما هو إلا نتاج طبيعي لابتعادها عن الله وشرعه، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يستطيع أن يغير ما حاق بنا في لمح البصر، وأنه لن يفعل ذلك إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا.

إذن فنقطة البداية التي ينبغي أن نبدأها للخروج من النفق المظلم الذي نسير فيه تبدأ مني ومنك. **فماذا نحن فاعلون؟!**

هل سنستمر في الأسى والبكاء على أحوال أمتنا دون فعل شيء؟!

هل سنظل في دائرة الإحباط التي ندور فيها؟ أم سنبدأ من الآن في تغيير ما بأنفسنا؟!

• • •

ما المقصود بالتغيير؟

خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ وكرمنا على سائر خلقه، وأسجد الملائكة لأبينا آدم، وأعدَّ الجنة لتكون لنا دارًا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد خلقنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكرمنا هذا التكريم، وأسكننا الأرض وسخرها لنا، لنقوم بأداء مهمة جليلة ألا وهي عبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فنحن لم نأتِ إلى الأرض لنأكل أو لنشرب أو لنتزوج، بل أتينا لأداء وظيفة محددة؛ وظيفة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

معنى العبودية

والعبودية المطلوبة من العبد لربه تشمل خضوعه واستسلامه وانقياده التام والمطلق له.

أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ هو غايتنا ومطلبنا ومقصدنا في أقوالنا وأفعالنا...

أن يكون حبه سبحانه هو أحب الأشياء إلينا، وأن يكون العمل على رضاه هو شغلنا الشاغل، فنحرص على القيام بكل ما يرضيه، والابتعاد عن كل ما يبغضه.

ومن مظاهر العبودية: أن تُصبح تصوراتنا واهتماماتنا، وأفراحنا وأحزاننا متعلقة بالله عَزَّوَجَلَّ، فنحب ما يحبه، ونبغض ما يبغضه، ونفرح لما يرضيه، ونغضب لما يُغضبه.

ومنها: خشيته في السر والعلن، والتوكل الدائم عليه، والرجاء فيه، ودوام الإنابة إليه، والثقة فيما عنده.

ومنها: دعوة الخلق إليه وتحبيبهم فيه، وجهادهم من أجل نشر دينه وإعلاء رايته.

امتحان العبودية

إن الوظيفة الأساسية لكل فرد يخرج إلى الأرض هي ممارسة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ في فترة وجوده في الدنيا؛ بداية من بلوغه الْحُلُم وحتى موته. هذه الوظيفة ليس سهلاً على الناس أن يقوموا بها، فالمولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل المكان الذي يؤدي فيه الفرد امتحان العبودية هو الأرض، وزينها بأشياء كثيرة تميل إليها النفس، ليكون الصراع بين ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ويريده من العبد، وبين ما تحبه النفس وتريد تحقيقه: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾** ﴾ [آل عمران: ١٤].

فوجودنا على الأرض وما تحتويه من زينة يتطلب منا جهادًا لأنفسنا ونصرة لله عليها إن أردنا أن نرتدي رداء العبودية وننجح في الامتحان.

ولقد ربط سبحانه بين ولايته ومدده ونصرته لعباده، وبين نصرتهم له على أنفسهم وتغيير ما بها، كما قال في كتابه: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾** ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

والتحقق بمعـــاني العبودية، وتغيير ما بالنفس، يشـــمل المفاهيم والتصورات، والمشاعر والوجدانات، والسر والعلانية، والأقوال والأفعال.

وفي المقابل، فكلما خلع العبد رداء عبوديته لربه، وســـار وراء هواه وازداد تعلقه بالدنيا، وحبه لهـــا ابتعد عن ولاية ربه، واســـتدعى بأفعاله تلك غضبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واستحق عقابه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٣، ٥٤].

شروط الولاية

الله عَزَّوَجَلَّ لا يظلـــم الناس شـــيئًا، ولكن النـــاس هم الذين يظلمون أنفســـهم بابتعادهم عن ممارسة الوظيفة المطلوبة منهم.

تخيل أن شـــخصين يعملان في شركة قد أُرسلا من قِبل رؤسائهما في بعثة إلى بلد من البلدان لأداء مهمة معينة وفي وقت محدد.

أما الأول فقد انبهر بما رآه في هذا البلد وانشـــغل بملذاته ناسيًا المهمة التي جاء من أجلها، والآخر انشـــغل بوظيفته والمهـــام التي كُلف بأدائهـــا. كل ذلك يحدث والتقارير تصل بانتظام لرؤسائهما.

تُرى !! هل تكون مشاعر الرؤساء تجاههما واحدة؟!

وماذا لو احتاجا مساعدة، فلأيهما ستكون؟! فمن البديهي أن الذي يقوم بمهمته هو الذي سيحظى برعاية رؤسائه وإجابة مطالبه، ومساعدته وقت الحاجة، أما الآخر

فلن يتبناه أحد، ولن يُلتفت إلى طلباته، بل العكس سيحدث، فالعقوبات والجزاءات تنتظره.

ولله المثل الأعلى، فلقد كلفنا الله عَزَّوَجَلَّ بأداء مهمة محددة على الأرض، فمن اجتهد في القيام بها فقد عرَّض نفسه لرضا مولاه؛ ومن ثمَّ عونه ومدده، أما من ترك مهمته وانشغل بشهواته فقد عرَّض نفسه لغضبه سبحانه؛ ومن ثمَّ حرمانه من المدد والتوفيق: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

إذن فنحن الذين نحدد لأنفسنا الطريقة التي نُعامل بها، فكلما ازداد اجتهادنا للاستقامة على طريقه والقيام بحقوق العبودية له؛ ازداد تعرضنا لفضله وولايته ونصرته، وفي المقابل: كلما ازداد ابتعادنا عن طريقه، ومخالفتنا لأوامره، ازداد تعرضنا لغضبه وعقابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

الكرامة والاستقامة

من هنا يتأكد لدينا بأن كرامة العبد عند الله مرتبطة بمدى عبوديته له: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالكرامة والولاية على قدر الاستقامة، واستمرار الولاية مرهون باستمرار الاستقامة، ألم يقل سبحانه لحبيبه ﷺ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

ومما يؤكد هذا المعنى ما حدث لبني إسرائيل، فالله عَزَّوَجَلَّ قد فضلهم على العالمين في فترة من الفترات بسبب صبرهم وتحملهم الأذى في سبيله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وعندما أساءوا استقبال نِعَم ربهم عليهم، وقابلوها بالجحود والطغيان واحدة تلو الأخرى، كان العقاب الأليم من الله عَزَّوَجَلَّ، والذي وصل مداه بأن جعل منهم قردة وخنازير: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠].

ومن أوفى بعهده من الله

يقص علينا القرآن قصة أناس كانوا يعيشون في رغد من العيش، فلم يستقبلوا تلك النعم بالعبودية المطلوبة، والإذعان لله عَزَّوَجَلَّ، فسلبها الله منهم وأذاقهم العذاب: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

وفي المقابل، كم من أناس كانوا في جاهلية وتفرق وتشرذم، فغيروا ما بأنفسهم وأصبحوا عبيدًا لله عَزَّوَجَلَّ، فكان الوفاء الكريم والسريع منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم فغير ما بهم من بؤس وضياع، وأعطاهم مفاتيح الأرض ليكونوا سادتها، وذلك في سنوات معدودة، وأعظم مثال لهؤلاء هو جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

نظرة على الواقع

فإذا ما أسقطنا هذه القاعدة على الواقع الذي تحياه أمتنا الآن، نجد أن ما يحدث لنا من ذلٍّ وهوان وبؤس وعذاب لم يأتِ من فراغ، بل بسبب ما اقترفته أيدينا، فبأفعالنا استدعينا غضب الله علينا.

ألم نعطِّل شريعته ونتحاكم إلى غيره؟

ألم نُنحِّ كتابه ودستوره الخالد ونستبدله بقوانين وضعية تُحلِّلُ الحرام وتُحرِّم الحلال؟

- ما قولك -أخي- في البنوك التي تتعامل بالربا؟
- وما قولك في الخمور التي تُباع جهارًا نهارًا في كثير من بلدان المسلمين؟
- وما قولك في سفور النساء؟

لقد انتشر الفساد في كل الاتجاهات، ولم يعُد مقصورًا على طبقة دون أخرى، فالمنكرات تملأ بلدان المسلمين. تفشى الظلم والفساد والغش والكذب بين الناس.

دخلت الفضائيات بيوت المسلمين لتعرض لهم الفحش والفجور ليلًا ونهارًا، فاستثيرت الشهوات، وانتهكت الحرمات.

أصبحنا في زمان القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر.

ارتفعت رايات الباطل ونُكِّست رايات الحق.

أُفسح المجال لدعاة العلمانية والتغريب، وغُيِّب صوت الدعاة إلى الله.

أصبح التمسك بالدين يعني التطرف والإرهاب، وأما التفسخ والانحلال فهو الاعتدال والوسطية، صار بأسنا بيننا شديدًا، واستعان بعضنا بالكفار وأعداء الدين على إخوانه المسلمين.

تفرقنا على رايات قومية، وتركنا الجهاد في سبيل الله، وتقاعسنا عن نصرة إخواننا المضطهدين في كل مكان.

حب الدنيا

لقد ملأ حب الدنيا قلوبنا، فأصبحت تصوراتنا وأحلامنا منبثقة منها، اتجهت أعيننا إلى الأرض وتصارعنا على ما فيها، فوقعنا فيما حذرنا منه رسول الله ﷺ بقوله: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»(١).

ألم نرضَ بالزرع؟ ألم نحلم بامتلاك الأراضي وبناء العقارات؟ ألم يشغل تفكيرنا التخطيط لمستقبلنا ومستقبل أبنائنا في الدنيا؟

ألم ننشغل بتنمية أموالنا وزيادة أرصدتنا بأي شكل كان وتركنا ديننا؟

فماذا نريد بعد ذلك؟ وماذا نتوقع أن يحدث لنا؟

> **إن اقتراف شيء واحد مما سبق ذكره لكفيل باستدعاء غضب الله علينا، فكيف بهذا كله مما تمتلئ به بلاد المسلمين؟!**

تأمل معي خطاب الترهيب الإلهي للمؤمنين من الوقوع في فعل شيء واحد مما نفعله: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٧٨، ٢٧٩].

والله إن لم تكن العاقبة إلا وقوفنا ندًّا محاربين لله ورسوله ﷺ لكفى.

هذا فيما يخص الربا، فماذا في موالاة الكافرين: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾**﴾ [النساء: ١٤٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (برقم: ٣٤٦٢) في البيوع باب النهي عن العينة.

تأمل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

ولقد حدث هذا بالفعل، وأصبحنا كأمة إسلامية في دائرة الغضب والعقوبة الإلهية وإن اختلف شكلها من مكان لآخر، ولعل من أهم المظاهر التي تؤكد لنا هواننا على الله عَزَّوَجَلَّ هو تسلط الأعداء علينا من هندوس وشيوعيين وبوذيين وصليبيين ويهود... هؤلاء الكفار ما كانوا ليفعلوا بنا ما يفعلون لو لم يأذن به الله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

اليهود الذين كتب الله عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة أصبحوا هم الذين يقومون بإذلالنا وإهانتنا وإهدار كرامتنا، وفرض سياستهم علينا.

ألهذا الحد أغضبنا الله عَزَّوَجَلَّ؟

أأصبح أبناء القردة والخنازير الأداة التي نؤدَّب بها؟ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣].

الجسد الواحد

فإن قلت: ولكنني لا أفعل هذه الموبقات، وأعمل جاهدًا على إصلاح نفسي، والاستقامة على أمر الله، فلماذا أُعاقب بما يعاقب به العاصون؟

يجيب عن هذا التساؤل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا»، وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**»(١).

إن الأمة الإسلامية أمة واحدة، يشكل مجموع المسلمين جسدها، فإذا حدث لعضو في هذا الجسد مكروه، فعلى الجميع أن يعملوا على عودته لصحته مرة أخرى.

ويؤكد هذا المعنى أن الخطاب القرآني الموجه لأفراد الأمة خطاب جماعي وليس فرديًّا بمثل: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾، ﴿ **وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ** ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ** ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿ **وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ** ﴾ [الحج: ٧٨].

ومن أهم دلالات هذا الخطاب الجماعي أننا أمام التكليف الإلهي جماعة واحدة، أو أمة واحدة: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالأمة الإسلامية هي الأسرة الكبيرة لكل فرد مسلم فيها، وهي كالجسد الواحد المكون من أجزاء وأعضاء كثيرة لكنها مترابطة ومنسجمة ومتكاملة، ولا يمكن لهذا الجسد أن يتمتع بالحيوية والنشاط والصحة إلا إذا كان جميع أعضائه كذلك، كما قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٢).

(١) أخرجه: أبو داود في الملاحم باب الأمر والنهي (برقم: ٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (برقم: ٢١٦٨)، وفي أبواب تفسير القرآن من سورة المائدة (برقم: ٣٠٥٧)، وابن ماجه في الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (برقم: ٤٠٠٥).

(٢) البخاري: في الأدب باب رحمة الناس والبهائم (برقم: ٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم (برقم: ٢٥٨٦).

الصالح المصلح

إذن فكون البعض منا صالحًا في نفسه، مبتعدًا عما يغضب ربه، فهذا لا يعفيه من مسئوليته عن الأمة وما يحدث لها... عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبذل غاية جهده في إصلاح الفساد، وإقامة المشروع الإسلامي، فإن لم يفعل ذلك دخل في عموم المعاقبين عقابًا جماعيًّا، كما قال تعالى: ﴿ **وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾** ﴾ [الأنفال: ٢٥].

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسيره لهذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب، وقال الضحاك عن الفتنة المذكورة في الآية: إنها تصيب الظالم والصالح عامة[١].

ولقد ضرب رسول الله ﷺ مثلًا على ذلك بقوله: «**مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا؟ فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[٢].

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: أوحى الله إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم، وستين ألفًا من شرارهم. قال: يارب، هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟! قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا

(١) الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٣٢٢)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) البخاري في الشركة باب هل يقرع في القسمة (برقم: ٢٤٩٣) وفي الشهادات باب القرعة في المشكلات (برقم: ٢٦٨٦)، والترمذي: في الفتن باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب (برقم: ٢١٧٣).

يؤاكلونهم ويشاربونهم[١].

وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم

إن مخالفة أوامر الله وعصيانه لَشيءٌ عظيم عنده سبحانه. نعم هو الحليم الصبور، يصبر على عباده مرة ومرة، ولكن إذا ما استمروا في عصيانهم عاقبهم لعلهم يفيقون من غفلتهم ويرجعون إليه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

لقد خرج الصحابة -رضوان الله عليهم- مع رسول الله ﷺ لملاقاة المشركين عند جبل أحد، وبدأت المعركة، وانتصر المسلمون في البداية، ولما خالف عدد قليل منهم أمر رسول الله ﷺ كان العقاب الأليم من الله عَزَّوَجَلَّ وكانت الهزيمة القاسية التي حدثت لهم، فرسول الله ﷺ كاد أن يُقتل، واستشهد منهم سبعون رجلًا و...، كل ذلك بسبب عصيان بعضهم لأمر رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

أين أثر الدعاء؟

معنى ذلك أن كل ما يحدث لنا من صور العذاب ما هي إلا عقوبات يعاقبنا الله عَزَّوَجَلَّ بها نتيجة لبعض أفعالنا السيئة: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٩٠) - دار ابن كثير، بيروت.

ولا ينبغي لمن وقع في المخالفة وارتكب الذنب أن يستغرب العقوبة: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

عن إبراهيم النخعي قال: أوحى الله إلى نبي من الأنبياء، أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل، يكونون لله عَزَّوَجَلَّ على طاعة فيتحولون منها إلى معصية، إلا تحول الله عَزَّوَجَلَّ لهم مما يحبون إلى ما يكرهون.

وليس أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل يكونون لله عَزَّوَجَلَّ على معصية، فيتحولون إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، إلا تحول الله عَزَّوَجَلَّ لهم مما يكرهون إلى ما يحبون[١].

من هنا تتضح لنا الإجابة عن سؤال البعض: أين أثر دعائنا لله عَزَّوَجَلَّ الذي ندعوه ليل نهار بكشف الغمة عنا؟

> **إن الغمة لن تنكشف بالدعاء فقط، بل لا بد أن يسبق هذا الدعاء ويصاحبه تحول حقيقي عن كل ما يغضب الله، وانتقال إلى ما يرضيه، لا بد من روح جديد يسري في كيان الأمة فيوقظها من سُباتها، ويعمل على تغييرها تغييرًا جذريًّا يشمل المفاهيم والتصورات، والسر والعلانية، والأقوال والأفعال. لا بد أن تعود الأمة إلى الله وتتجه إليه وتعمل على استرضائه.**

أستاذية العالم

لقد مرت على أمتنا في الماضي أوقات عصيبة، وحدث لها من الأحداث المشابهة لما يحدث لنا اليوم. هذه الأحداث كانت سببًا في استنهاض همم بعض الغيورين على الدين من أمثال صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فعمد إلى نشر السنة والأمر بالمعروف

(١) العقوبات لابن أبي الدنيا (ص: ٥٢، ٥٣)، دار ابن حزم - بيروت.

والنهي عن المنكر، واستثارة همة الناس للجهاد في سبيل الله، ورغَّبهم فيه، فاستجاب له الكثيرون وخرجوا معه لتحرير القدس والمسجد الأقصى، فنصره الله عَزَّوَجَلَّ نصرًا مؤزَّرًا، ولكن بعد موته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتولي أبنائه وأفراد أسرته الحكم من بعده؛ بدأوا يتصارعون عليه، فدب الوهن مرة أخرى في جسد الأمة وحدث لها ما حدث من أحداث جسام.

إذن فنحن لا نريد انتصارًا وقتيًّا في معركة من المعارك ثم يعود الحال إلى ما كان عليه، كما حدث في أفغانستان من قبل.

لا نريد فقط قائدًا يقودنا إلى الانتصار، فإن مات وتَرَكَنا عادت الهزائم والنكبات، بل نريد أمة جديدة وأجيالًا متلاحقة لا تعرف إلا الله وما يرضيه.

نريد رايات الإسلام ترفرف من جديد على ربوع العالم الإسلامي: على القدس ويافا وحيفا، على الأندلس والفلبين، على الهند والصين، على روما...

نريد الخلافة المفقودة وأستاذية العالم.

نريد أن نستكمل ما بدأته الأجيال الأولى، فيصبح الدين كله لله.

هذه الآمال العظيمة -أحلام اليوم- ستكون -بلا شك- حقائق الغد كما وعدنا رسول الله ﷺ بقوله: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ وَذُلًّا يُذِلُّ بِهِ الْكُفْرَ**»[1].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣برقم: ١٦٩٩٨)، والطبراني في الكبير (٢/ ٥٨برقم: ١٢٨٠)، والحاكم (٤/ ٤٧٧برقم: ٨٣٢٦)، والبيهقي (٩/ ١٨١برقم: ١٨٤٠٠).

يقينًا سيحدث هذا، وستُفتح روما، وسيعود الأقصى، وستأتي خلافة أخرى كأختها الراشدة الأولى، ولكن بمن؟ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولكي نكون نحن وأبناؤنا من هؤلاء القوم، ولكي يعود مجد الإسلام من جديد، لا بد من التغيير الداخلي في ذواتنا أولًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد: ١١].

• • •

عوائـــق التغيير

قد يقول قائل: إن كل ما قيل في الصفحات السابقة قد سمعناه مرات ومرات، ولا يوجد من يختلف عليه، ولكن النقطة التي نقف عندها ولا نســتطيع تجاوزها هي كيفية التغيير.

- كيف نحول الكلام النظري إلى واقع عملي؟
- كيف يصبح الله عَزَّوَجَلَّ أحب إلينا وأعز علينا من كل شيء؟
- كيف تتغــير اهتماماتنا من تفكير في المســتقبل والأولاد و..، إلى تفكير فيما يُرضي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟
- كيف نخرِجُ حبَّ الدنيا من قلوبنا ونتخلص من جواذب الأرض والطين؟
- كيف نسارع في القيام بأعمال البر، ونهجر كل ما يغضب الله عَزَّوَجَلَّ؟

نظرة إلى واقعنا

قبل طرح التصور المقترح عن كيفية تغيير ما بأنفسنا لا بد أن نشخص معًا الحالة التي وصلنا إليها، والأسباب التي أفرزت هذا الواقع الذي نشاهده.

لنسأل أنفسنا

لماذا نتكلم كثيرًا عن المبادئ والقيم ولا نستطيع أن نُلزم أنفسنا القيام بمقتضيات هذا الكلام؟

ما الذي يحول بيننا وبين تنفيذ التوجيهات التي تُلقى على مسامعنا؟!

ما الذي يجعل سلوكنا لا ينطبق مع قولنا؟!

هل الجهل هو السبب؟!

وكيف يكون ذلك، وما قيل ويقال للأمة الإسلامية عبر الفضائيات ووسائل الإعلام المختلفة يكفي لإصلاح الأجيال حتى قيام الساعة؟!

ومع هذا كله فإننا لا نجد في واقعنا أثرًا أو تغييرًا حقيقيًا يكافئ هذا الكم من الكلام.

إذن فهناك انفصال بين القول والفعل، بين الواجب والواقع، فما السبب في ذلك؟!

الإجابة عن هذا السؤال تستلزم معرفة الدوافع التي تدفع الإنسان للسلوك بصفة عامة، والمراحل التي يمر بها قبل أن يظهر للواقع.

كيف يتم السلوك؟

لكي يظهر سلوك اختياري ما إلى الوجود، فإن هناك ثلاث مراحل لا بد أن تتم داخل الإنسان:

أولًا: القناعة العقلية بالفعل المراد القيام به.

ثانيًا: إصغاء قلبي لصوت العقل ورضاه بما يشير إليه.

ثالثًا: صدور أمر من القلب إلى الجوارح بالتنفيذ.

هـذه المراحل الثـلاث جمعها قولـه تعـالى: ﴿ **وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾** ﴾ [الأنعام: ١١٣].

فإذا أردنا أن نشخِّص أسباب السـلوك غير السوي والذي نشكو من وجوده، ونريد تغييره إلى ما يحبه الله ويرضاه، فلا بد أن يتناول البحث محاور ثلاثة:

المحور الأول:

يتعلق بعقل الإنسان وفكره وقناعاته والتي تشكل المنطلق الأول للسلوك.

المحور الثاني:

يتعلق بقلب الإنسان وما يحول بينه وبين تنفيذ ما يمليه عليه العقل.

المحور الثالث:

يتعلق بالنفس التي تشكل العائق الأساسي الذي يقف أمام إخلاص هذا الفعل لله عَزَّوَجَلَّ.

المحور الأول: العقل

إن كان سلوك الإنسان ينطلق من المشاعر، والتي تشكل في مجموعها قلب الإنسان، فإن ما يحرك هذه المشاعر هو الفكر؛ فالفكر هو المنطلق الأول للسلوك، وعلى قدر قناعة العقل بالشيء تكون قدرته على التأثير في المشاعر بإذن الله.

فإن قلت: ولكن هناك الكثير من الأفعال التي يقوم بها الإنسان بتلقائية ودون تفكير.

نعم، يحدث ذلك فيما لا يقل عن ستين بالمائة من تصرفات الإنسان اليومية كما أثبت العلماء، ومع ذلك فإن هذه الأفعال التلقائية تنطلق أيضًا من الأفكار الراسخة داخل العقل، والتي تُسمَّى بمنطقة اللاشعور.

الشعور واللاشعور

ينقسم عقل الإنسان إلى قسمين: مدرك (الشعور)، وغير مدرك (اللاشعور).

فبالعقل المدرك يستقبل الإنسان المعلومة ويفهمها ويدرك ما تدل عليه، فإذا وافق عليها واقتنع بها كان الطريق ممهدًا لتنفيذ مقتضاها من خلال القلب، وإذا لم يقتنع بها فإنها لن تجاوز عقله.

أما العقل غير المدرك أو ما يسمى باللاشعور أو اليقين، ففيه تُختزن المعلومات الراسخة لدى الإنسان (عن نفسه وعائلته ومفاهيمه وتصوراته وعقائده...).

هذه المنطقة تشكل المنطلق الأساسي للأفعال التلقائية التي تتم بدون تفكير، ولا يوجد إنســان على ظهر الأرض إلا ولديه منطقة يقين خاصة به. هذا اليقين قد يكون صحيحًا، وقد يكون خاطئًا، ولكنه يبقى يقينًا ليس فيه شك.

فعلى سبيل المثال: هل يشك أحد في اسمه أو أسماء أبنائه وزوجته؟!

وهل يشك أحد في كون الماء سببًا للإرواء والطعام للإشباع، وأن الظلام يحل في المساء والشمس تشرق في الصباح؟!

كيف يتكون اليقين؟

يقين الإنســان يتكون من خلال الأفكار التي ترد عليه من العقل المدرك، فما من فكرة يقبلها العقل المدرك إلا وتدخل إلى منطقة اللاشــعور، فــإذا تكرر مرور هذه الفكرة مرات ومرات من الشعور إلى اللاشعور اكتسبت هذه الفكرة صفة الرسوخ، وأصبحت ضمن يقين الإنسان وثوابته ومعتقداته، وأصبحت تشكل مصدرًا لأفعاله التلقائية.

فعلى ســبيل المثال: فهم قواعد اللغة العربية يتم مــن خلال العقل المدرك، فإذا تدرب العقل مرات كثــيرة على أن الفاعل دائمًا مرفوع، والمفعول دائمًا منصوب، فإن هذه المعلومات ترســخ في اللاشعور، لينطلق اللسان بعد ذلك رافعًا للفاعل وناصبًا للمفعول بتلقائية.

وكذلــك تعلم أحكام التجويد يتم أولًا بالعقل المدرك، ثم تنطلق هذه الأحكام إلى اللاشعور وترسخ فيها بالتكرار ثم التكرار، لتنطلق الألسنة بعد ذلك وتطبق هذه الأحــكام عند التلاوة ودونــما تفكير، بل إن الشــخص قد ينســى منطوق الحكم التجويدي بمرور السنين لكنه لا يخطئ في تطبيقه.

علاقة اليقين بالتغيير

من الأمور الملاحظة بيننا أننا كثيرًا ما نتكلم عن قيم ومبادئ وتصورات، ونبدي قناعة تامة بها نسمع ونتحدث، ثم نفاجأ بأن الكثير منا يخالف بفعله ما قاله بلسانه.

فعلى سبيل المثال: عند طرح موضوع الذكور والإناث وأيهما تريد أن تلده زوجتك؟! تجدنا نتبارى في إظهار استسلامنا لله عَزَّوَجَلَّ، وأننا سنرضى بما يقسمه لنا من هذا الرزق.

هذا في ميدان القول، أمَّا في الواقع فالأمر قد يختلف، فالبعض لن يستقبل مولودته الأنثى بهذا الرضا الذي أظهره أثناء المناقشة، فإذا ما أنجبت زوجته أنثى للمرة الثانية ازداد ضيقه. هذا الضيق قد يتصاعد في المرة الثالثة لينطلق متهمًا زوجته بأنها السبب في ذلك، وقد يتوعدها إن تكرر الأمر مرة أخرى!!

وفي موقف آخر تجد الحديث الدائر بين الناس عن أهمية الإحسان إلى الزوجة واستشارتها في أمور الحياة و...

أما في الواقع فتجد بعض المشاركين في هذا الحديث والمتحمسين له، يسيء لزوجته ويتعامل معها بأسلوب الأوامر وفرض الرأي و...

نتحدث عن الدنيا وقيمتها الحقيرة، وضرورة عدم التعلق بها لأنها فانية و... فإذا انتقلنا إلى واقعنا نجد الكثير منا يشغل باله وتفكيره بمستقبله ومستقبل أولاده الصغار وكيف يؤمنه لهم، فيبني لهم الدور، ويسعى سعيًا حثيثًا للادخار والاستثمار، يفرح كلما ازداد رصيده من المال ويحزن عند نقصانه، ...

هذه وغيرها من الأمثلة التي تبين لنا التناقض بين الأقوال والأفعال، والتي

تنشـــأ بصورة رئيسة بسبب التناقض بين ما نقتنع به بعقولنا المدركة، وبين ما يوجد في يقيننا من أفكار وتصرفات.

فالولد الذي تربى في بيته على حب المال، عندما يكبر ويسمع عن ضرورة وأهمية الإنفاق في سبيل الله فإنه قد يبذل بعضًا من ماله تأثرًا بما سمعه، لكن سرعان ما يزول أثر هذا الكلام من ذاكرته ويعود لسابق عهده من الحرص والشح بالمال، وما دفعه إلى ذلك إلا يقينه الخاطئ الذي تكوَّن لديه منذ الصغر، ومارس مقتضياته مرات ومرات.

كذلك فالذي يرى أباه يتعامـــل بجفاء مع أمه ولا ينكر ذلك، فإن هذه الصورة من التعامل سترسخ في يقينه ليطبقها بعد ذلك في التعامل مع زوجته.

وسائل تكوين اليقين

وســـائل تكوين اليقين هي المصادر التي يســـتقي منها الفرد معارفه، وتقف على رأســـها البيئة التي ينشأ فيها. مع الأخذ في الاعتبار أنه كلما صغرت السن كان تكوين اليقين أسرع؛ لأن صاحبه يســـتقبل المعلومات بعقله المـــدرك دون أن يفكر فيها كثيرًا ويمررها إلى منطقة اللاشـــعور؛ لترســـخ فيها من خلال تكرار مروره عليها، هذا من ناحية، ومن ناحيـــة أخرى فإن الأبوين هما القدوة والمثـــل الأعلى لأبنائهما، ومن هنا كانت تربية الأبوين للابن من أهم عوامل تكوين اليقين عنده، فما يشاهده في بيته منذ الصغر، وطريقة تعامل أبويه مع مفردات الحياة، والاهتمامات التي يهتمون بها، وطريقة تعاملهم مع بعضهم، أو مع الآخرين، كل هذه الأشـــياء تُشكِّـــلُ أكبر صانع لليقين داخل الإنسان، وعلى أساسها تتكون شخصيته واهتماماته وتصوراته عن الحياة، ...

فعلى ســـبيل المثال: كثرة مشـــاهدة الأب وهو يذكر الله، ويحافظ على أداء الصلاة ويعطف على المساكين، كل ذلك له دور كبير في ترسيخ أهمية هذه الأشياء في يقين الابن.

أما الذي يلمس حرص أبويه على المال والادخار وبناء العقارات، ويرى حزنهما الشـــديد إذا ما ضاع منهما شيء من المال، فستُتَرجم هذه الاهتمامات إلى معتقدات في يقينه وتترسخ فيه.

خطورة التلفاز والهواتف الذكيَّة والأجهزة الحديثة

ومن وســـائل تكوين اليقين داخل الإنسان كذلك: وســـائل الإعلام بصورها المختلفة، ومن أهمهـــا جهاز التلفاز، والهواتف وغيره مـــن الأجهزة الحديثة المتصلة بشكل شبه دائم بالشبكة العنكبوتية، إلى جانب وسائل التواصل الاجتماعي.

وتكمن خطورة تلك الوســـائل في أنها تُعد من أخطر عوامل بناء اليقين داخل الإنسان سواء أكان صحيحًا أم خاطئًا؛ فما يُعرض على جهاز التلفاز، أو أثناء التصفح المتوســـع شـــبه اليومي على هذه الأجهزة، وبصورة متكررة، من أفلام ومسلسلات ومقاطع فيديو، تحتـــوي على إعلانات له دور كبير في تكويـــن اليقين الخاطئ داخل الإنسان، وبخاصة عند الصغار.

فعلى ســـبيل المثال نجد أن تكرار عرض صور النســـاء العارية والمناظر الخليعة واختلاط النساء بالرجال، والصداقة بين الجنسين وما تُنشئه من علاقات محرمة، مع عرض كل هذا بأســـلوب محبب -وفكاهي أحيانًا- له دور كبير في قبول العقل لهذه الأفكار؛ ومن ثَمَّ مرورها إلى اليقين ورســـوخها فيه بدوام تكرار عرضها، مع الأخذ في الاعتبـــار أن للصورة المرئية تأثيرًا مباشرًا على اللاشـــعور، فالعقل المدرك غالبًا ما يتركها تمر دون تفكير[1].

(١) نقلت مجلة (بث) السعودية أن من أغرب الأساليب الإعلانية التي استخدمتها شركة كوكاكولا أنها كانت تستأجر لقطات متفرقة لا تزيد على ١/ ٢٤ من الثانية في أهم الأفلام الأمريكية لتمرر =

وفي المقابل: عند استخدام هذه الأدوات بصورة تربوية موجهة فيتم من خلاله بث الأفكار الصحيحة، فإن ذلك له دور كبير في بناء اليقين الصحيح داخل الفرد.

دور المدرسة

أمَّا العامل الثالث في تكوين يقين الإنسان: المدرسة، ففيها تُبث الأفكار والمبادئ والاهتمامات والتصورات...

ومع المدرسة تأتي البيئة المحيطة بالفرد كالأصدقاء والجيران والأقارب.

ولا نُغفِل كذلك وسائل تكوين المعرفة الأخرى من كتب وصحف وكمبيوتر وألعاب.

كل هذه العوامل تشترك في تكوين اليقين بشقيه الصحيح والخاطئ، والذي يختلف من شخص لآخر بناء على طبيعة العوامل التي تعرَّض لها.

> **ولكي يتم التغيير الصحيح في الاهتمامات والتصورات؛ ومن ثمَّ السلوك، لا بد أولًا من إعادة بناء منطقة اللاشعور، واستبدال اليقين الخاطئ بيقين صحيح تنطلق منه الخواطر والاهتمامات والأفعال التلقائية في حياة الإنسان.**

• • •

= صورة مشروبها، وهي عملية دعائية مدروسة ترسخ صورة المشروب في العقل الباطن للمشاهد دون مرورها على عقله الواعي، فلو سألته: هل شاهدت زجاجة (كوكاكولا) سيجيبك بالنفي، ولكنه سيتوجه بعد مشاهدة الفيلم لشراء (كوكاكولا)، وقد مُنعت الشركة لاحقًا من استخدام هذا الأسلوب الدعائي باعتباره أداة للغش التجاري – نقلًا عن مجلة (بث) العدد، (١٦)، ذي القعدة ١٤٢٤ هـ.

المحور الثاني: القلب

ومع أهمية الفكر كمنطلق أساسي للسلوك، إلا أن هذا الفكر لا بد أن يجد من القلب رضًا وتجاوبًا وإلا ظلت الأفكار حبيسة العقل؛ ومن ثَمَّ يعيش الشخص في تناقض بين فكره وسلوكه.

ولقد مرت علينا في حياتنا جميعًا أوقات شعرنا فيها بهذا التناقض. أحيانًا نريد أن نقلع عن مشاهدة التلفاز، أو التقليل من تصفُّح وسائل التواصل الاجتماعي فلا نستطيع. نريد أن نستيقظ مع أذان الفجر أو قبله فلا نقدر. نريد أن نترك عادة سيئة فلا نستطيع.

فإن قلت: فما السبب الذي يجعلنا لا نستطيع تنفيذ أشياء قد اقتنعنا بها، بل قد تكون أهميتها قد رسخت في يقيننا؟! وكذلك لا نستطيع ترك أشياء نحن على ثقة تامة بمدى خطورتها علينا؟!

السبب في ذلك هو ضعف الإرادة القلبية والهزيمة أمام النفس، فإن كان العقل هو الدافع الأول للسلوك، إلا أن الذي يأمر الجوارح بالتنفيذ هو القلب، فقلب الإنسان هو الملك على جميع الأعضاء، وما من فعل اختياري يقوم به العبد إلا ويعكس موافقة من القلب على تنفيذه، قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا**

صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[١].

معنى ذلك أن العقل قد يقتنع بفكرة ما ويشير على القلب بتنفيذها، إلا أن القلب حين لا يرضى بذلك لا يتم الفعل.

ولكن ما الذي يحول بين القلب وبين تنفيذ ما يشير به العقل؟!

الـــذي يحول بينه وبين ذلك تمكن الهوى منه وســـيطرته عليه، فالقلب هو مجمع المشاعر والعواطف داخل الإنسان. هذه العواطف يتجاذبها طرفان؛ الطرف الأول: الإيمان بما في العقل من عقائد وأفكار، والثاني: الهوى وما تميل إليه النفس.

> **فالعقل يريد من القلب تنفيذ مقتضيات أفكاره وقناعاته، والنفس تريد من القلب تنفيذ ما تهواه وتميل إليه من شهوات وحظوظ.**

فالصراع بين الإيمان والهوى يتم قبل كل فعل يقوم به العبد، وأيهما أقوى سينتصر ويســـتولي على إرادة القلب؛ ومن ثمَّ يكون الفعل من نصيبه: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ** ﴾ [القصص: ٥٠].

فلحظة المعصية تعكس انتصار الهوى على الإيمان، ولحظة الطاعة تعكس انتصار الإيمان على الهوى في القلب، كما قال رســـول الله ﷺ: «**لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْـــرِقُ حِينَ يَسْـــرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْـــرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[٢].

---

(١) متفق عليه، البخاري كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه (برقم: ٥٢)، ومسلم كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٣/ ١٢١٩برقم: ١٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم باب النهبى بغير إذن صاحبه (برقم: ٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية وقد استوفى ابن الأثير طرقه كلها في جامع الأصول في اللواحق (٨/ ٥١٠).

وعلى قدر تمكن الإيمان بالله من مشـــاعر الإنســـان وقلبه يكون انعكاس ذلك على السلوك بأعمال صالحة، وعلى قدر تمكن الهوى من تلك المشاعر تكون المعاصي والغفلات.

التشخيص

من هنا يتضح لنا أن الســـبب الرئيس لعدم قيام القلب بتنفيذ قناعات العقل هو قوة الهوى وسيطرتها على أكبر قدر من مشاعره؛ مما يتيح لها التمكن من إرادته، فإذا ما أردنا تغييرًا حقيقيًّا في سلوكنا علينا أن نُمكِّن للإيمان في القلب ونطرد منه الهوى، كما وصف الله عَزَّوَجَلَّ الصحابة -رضوان الله عليهـــم- بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

• • •

المحور الثالث: النفس

خلق الله عَزَّوَجَلَّ في كل إنسان نفسًا محبة للشهوات، مؤْثِرة للراحة، طالبة للعلو والتميز عن الآخرين، تحب أن تأخذ نصيبها من كل فعل يقوم به العبد.

ولأن هواهـــا في الراحة فإنها تلح على صاحبها بعـــدم القيام بالطاعة لما فيها من مشقة، فإن قاومها العبد وألزمها فعل الطاعة فإنها لا تستسلم له، بل تحاول أن تأخذ حظها من هذا الفعل، وذلك من خلال الإلحاح عليه لكشف عمله أمام الناس لتعلو منزلته عندهم فيُعظِّموه ويَمدحوه، فتُسقى من خلال ذلك شراب النشوة والسعادة.

فإن لم يفعل ذلك فإنها لا تيأس من نيل حظها، فتعمل على تضخيم العمل الذي قام به في عينه، وتُشعره بتميزه به على الآخرين، فيُعجب بها ويرضى عنها، وينسى أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أعانه على القيام بهذا العمل.

الصنم الداخلي

إذن فليس معنى أن الشخص يؤدي ما عليه من واجبات، ويحرص على الانضباط في سلوكه وتعاملاته... ليس معنى هذا أنه قد ارتدى رداء العبودية، وأصبح في مظان الرضا والتوفيق الإلهي. فقد يكون هذا الشـــخص راضيًا عن نفسه، فرحًا بها، ينظر إليها بعين الإعجاب، ويعتقد أنه مميز عن غيره بما يفعله من أعمال، وتراه دومًا يقارن نفســـه بغيره، ويرى أنه أفضل من جميع من حوله، ولِـــمَ لا وهو يصلي بالليل وهم

نائمون، ويعمل للإسلام وهم قاعدون، منضبط في سلوكه وهم مفرطون، يعتقد أن عنده أشياء وملكات ذاتية ليست عند غيره، يمكنه أن يستدعيها ويستعين بها وقتما شاء، فتتضخم بذلك نفسه، وتكبر داخله وتصبح كالصنم يستعين به في تصريف أموره، فيشرك بذلك بالله عَزَّوَجَلَّ، ويتعرض للهلاك، كما قال رسول الله ﷺ: «... **فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**»(١).

فإذا تعرَّض العبد لمقت الله تباعد عنه التوفيق الإلهي؛ ومن ثَمَّ النصر والتأييد: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

من هنا تبرز قيمة جهاد النفس في قضية التغيير، فمع الأهمية القصوى لإيقاد شعلة الإيمان في القلب والعمل الدائم على زيادته، لا بد كذلك من المحافظة على أعمالنا التي نقوم بأدائها من كل ما يفسدها، ويبعدها عن مظنة الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

الخلاصة

إذا كان المطلوب أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله عَزَّوَجَلَّ ما بنا، فإن هذا التغيير لا بد أن يشمل:

أولًا: الأفكار والتصورات والاهتمامات، وهذا يستدعي تغيير اليقين الخاطئ في العقل الباطن.

ثانيًا: زيادة الإيمان وتمكنه من القلب، وطرد الهوى منه.

(١) رُوي عن ابن عمر وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. حديث ابن عمر: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٤٧ برقم: ٥٧٥٤)، قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة ومن لا يُعرف. وحديث أنس: أخرجه البزار في البحر الزخار (١٣/ ٤٨٦ برقم: ٧٢٩٣).

ثالثًا: جهاد النفس وترويضها على لزوم الصدق والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

لينعكس نتاج التغيير في هذه المحاور الثلاثة على السلوك؛ ليكون على الوجه الذي يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، مع التذكير الدائم بأن سلوك المرء وحركته في اتجاه تحقيق ما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ لا بد وأن تكون موجهة نحو إصلاحه لنفسه، وأن تكون موجهة كذلك نحو إصلاحه للآخرين: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾** ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

● ● ●

من أين نبدأ؟

لعلك -أخي القارئ بعد أن قرأت الصفحات السابقة- قد ازداد يقينك بأن ما يحدث للأمة الإسلامية من نكبات وهزائم إنما يحدث بإذن الله ومشيئته، وأنه نتيجة طبيعية لما أحدثناه من انحراف وابتعاد عن منهج الله، وأن المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادر على تغيير ما بنا، ولكنه أخبرنا في كتابه بأن هذا التغيير لن يتم إلا إذا بدأنا نحن بتغيير ما بأنفسنا.

وتغيير ما بالنفس يستلزم تغيير الأفكار والتصورات الخاطئة، وتمكين الإيمان من القلب، وترويض النفس وجهادها على لزوم الصدق والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

كل هذا لا بد أن يتم ليكون النتاج عبدًا مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ، يتمثل فيه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

أو بعبارة أخرى: يمكننا القول بأن غاية التغيير هي ظهور المسلم الصالح المصلح الذي تتأسس عليه الأسرة المسلمة فالمجتمع المسلم..

صعوبة التغيير

فإن قلت: ولكن كيف لنا أن نغير هذا كله؟!

نعم إنه أمر شاق وصعب أن يتم التغيير في هذه المحاور الثلاثة مجتمعة، وفي المقابل، فإن ترك أي محور منها سيؤدي -في الغالب- إلى عدم ظهور الثمرة المرجوة.

لا بد -إذن- أن يشمل التغيير هذه المناطق الثلاث: العقل - القلب - النفس.

ولكن كيف يتم ذلك؟

- كيف يتم التغيير في العقل الباطن، وفي يقين الإنسان وثوابته، والتي تختلف من إنسان لآخر لاختلاف البيئات ومصادر التلقي؟
- كيف يتم طرد الهوى وحب الدنيا من القلب وهي تحيط بنا ليل نهار؟
- كيف لنا أن نجاهد أنفسنا، ونحطم أصنامنا، ويكون كل منا عند نفسه صغيرًا؟!
- كيف يتم هذا كله ونحن نسير في الحياة، ونسعى في طلب الرزق، وعلينا الكثير من الواجبات؟!

لكل داء دواء

ومع هذه الصعوبة الشديدة التي تبدو أمامنا في كيفية التغيير، إلا أننا نوقن بأن هناك حلًّا لذلك، ألم يقل رسول الله ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ الدَّوَاءَ**»؟[1].

فمما لا شك فيه أن هناك دواء أنزله الله عَزَّوَجَلَّ نداوي به ما نعاني منه، وأن رحمته التي يغمرنا بها تقتضي وجود هذا الدواء الذي يُعيدنا إلى حظيرة العبودية له.

فما هو يا تُرى هذا الدواء؟

إذا طرحنا هذا السؤال فيما بيننا فسنجد إجابات مختلفة، وسيسوق كل فريق الأدلة التي تؤيد وجهة نظره وترجح فاعلية دوائه، ولن نتفق على شيء.

(١) أخرجه ابن ماجه: (٢/ ١١٣٨برقم: ٣٤٣٨). كتاب الطب باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.

أما إذا بحثنا عن آثار ونتائج ناجحة لدواء تم استخدامه سابقًا لمهمة التغيير فسيكون البحث أيسر، ويصبح من الممكن الاتفاق على هذا الدواء.

وباستقراء تاريخ الأمة الإسلامية نجد فيها صفحات مشرقة لجيل من الأجيال كانوا قبل إسلامهم غاية في الغرابة والجاهلية، ثم تبدل حالهم وتغير تغييرًا جذريًا ليصبحوا عبيدًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ يعملون من أجله، ويضحون في سبيل مرضاته بالغالي والنفيس، ... ذلكم هو جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

من يُصدِّق أن أمة تعيش في الصحراء بلا مقومات تُذكَر، تغرق في الجاهلية، لا شأن لها بين الأمم، لم يفكر أحد في احتلالها أو وضعها في حساباته أصلًا.

هذه الأمة كانت أشتاتًا متفرقة، تثور بينها الحروب لأتفه الأسباب، أصبحت في سنوات معدودة تقود البشر وتحطم الإمبراطوريات. تغيَّرت اهتمامات أبنائها، فأصبح الله عَزَّوَجَلَّ هو غايتهم ومقصدهم.

صدقوا معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونصروه على أنفسهم، فغيَّر الله ما بهم، وأعطاهم مفاتيح الأرض وملَّكهم ممالكها.

والأمر اللافت للانتباه أن هذا التغيير لم يكن مقصورًا على أفراد بعينهم، بل امتدَّ ليشمل الجيل بأكمله، رجالًا ونساءً، شبابًا وشيوخًا.

نماذج عملية

تأمل معي التغيير الذي حدث لصهيب الرومي والذي حدا به لأن يضحي بماله كله من أجل مرضاة الله. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت

لي قريش: يا صهيب، قدمت إلينا ولا مـــال لك، وتخرج أنت ومالك، والله لا يكون ذلك أبدًا، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت لكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم. فدفعت لهم مالي فخلوا عنـــي، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلـــك النبي ﷺ فقال: «**رَبِحَ صُهَيْبٌ، رَبِـــحَ صُهَيْبٌ مَرَّتَيْنِ**»، وفيه نزل قولـــه تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾** ﴾ [البقرة: ٢٠٧][(١)].

وانظر إلى الخنســـاء التي ملأت الآفاق بكاء وعويلًا عنـــد وفاة أخيها «صخر» وذلك قبل إســـلامها، هذه المرأة هي نفســـها التي دفعت بأولادها الأربعة -فلذات كبدها- إلى الموت طلبًا للشـــهادة في سبيل الله، وذلك بعد إسلامها وتَغيُّرها وعودتها إلى حظيرة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

وعندما بلغها نبأ استشهاد الأربعة قالت: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

كيف حدثت المعجزة؟

والنماذج كثيرة ومتنوعة، وكلها تؤكد على أن تغييرًا جذريًّا وعميقًا قد حدث في نفوس هؤلاء الأخيار؛ أخرج الدنيا من قلوبهم، وعلق أبصارهم بالسماء، وجعلهم لا يفكـــرون إلا فيما يُرضي الله. لقـــد حدثت معجزة عظيمة لهـــؤلاء نقلتهم هذه النقلة البعيدة، وأعادت صياغتهم وتشكيلهم من جديد.

فما سر هذه المعجزة؟!

ما الدواء الذي استطاع -بعون الله- أن يُحدث هذا كله؟!

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٤) - مكتبة العبيكان.

قد يقول قائل: إنه الإيمان العميق الذي تمكن من قلوبهم واستولى عليها، وكأنهم هم الذين دخلوا إلى الإيمان كما عبر القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

نعم، هذا صحيح، ولكن يبقى السؤال عن الوسيلة التي تَولَّد من خلالها هذا الإيمان، وأَخْرَج هؤلاء الصفوة من الظلمات إلى النور.

يُجيب القرآن عن هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فالقرآن هو الدواء الذي تناوله هؤلاء فتغيروا هذا التغيير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

إنه السر الأعظم والمعجزة الكبرى التي اختص الله بها هذه الأمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

وجواب الشرط هنا محذوف وتقديره «لكان هذا القرآن».

الموجه التربوي

ومع القرآن وقدرته الفذة والعجيبة في التأثير والتغيير كان المربي العظيم ﷺ هو الذي يشرف على عملية التغيير ويتابعها ويوجهها: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

إذن فالحل الذي نريده ينطلق من محورين: المنهج وهو القرآن، والموجه التربوي وهو الذي يتعاهد عملية التغيير.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وحول هذين المحورين يدور -بإذن الله- الحديث في الصفحات القادمة.

• • •

هـــذا القـــرآن

قال تعـــالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١].

لو تأملنا هذه الآية بدون اســم الإشــارة (هذا) لوجدناها تؤدي نفس المعنى، ولكن وجود هذه الكلمة أعطى للرســالة التي تحملها الآية آفاقًا ودلالات جديدة، منها:

إن «هذا» القــرآن الذي بين يديك الآن وتقرأ فيه هــذه الآية -أيها القارئ- له قدرة فذة وعظيمة على تغييرك، فإن كنت في شــك من ذلك فانظر إلى جبل من الجبال القريبة منك وتأمل صلابتها وشــموخها ثم تخيلها وقــد انهارت وأصبحت حطامًا وأنقاضًا!

كل هذا يمكن أن يحدث لو رُكِّب لهذا الجبل عقل كعقلك فيســتقبل به القرآن، فكيف يمكنه أن يفعل بقلبك وهو ألين من هذا الجبل؟!

طريق الاستقامة

إن القرآن هو القادر -بــإذن الله- على تغييرنا وإعادة صياغتنا من جديد، ولم لا وهو يمكنه تغيير طبيعة الجبال الصلبة القاسية.

والقرآن كذلك هو الطريق للاستقامة الدائمة على أمر الله، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، والملاحظ أن الآية تضمنت أيضًا اسم الإشارة (هذا)، فهذا القرآن الذي بين يديك يستطيع أن يقوِّم مسارك ويعدل سلوكك ليجعلك تستقيم على أمر الله وصراطه المستقيم: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التكوير: ٢٧، ٢٨].

القرآن وجمع الكلمة

لقد كان الصحابة قبل إسلامهم غاية في التفرق والعصبية القبلية؛ تفاخر بالأنساب، وتعامل طبقي يُفرِّق بين السادة والعبيد، بل وبين قبيلة وقبيلة، فكيف توحدوا جميعًا وأصبحوا أمة واحدة؟

الذي حدث أن هناك حبلًا قد نزل من السماء فأمسكوا به جميعًا فجذبهم من على الأرض وارتفع بهم إلى السماء فوق الشهوات والأهواء والطين.. هذا الحبل هو القرآن، الذي استطاع أن يجمع شمل الجميع، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وكما قال رسول الله ﷺ: «**كِتَابُ اللهِ، هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**»(١).

فبالقرآن توحد المسلمون الأوائل على هدف واحد، ألا وهو الرغبة في الله وفيما عنده، فارتفعوا به إلى السماء، وتخلصوا من جواذب الأرض والطين، ولقد أكد هذا المعنى رسول الله ﷺ بقوله: «**أَبْشِرُوا، فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَهْلَكُوا وَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»(٢).

(١) الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن (٥/ ١٧٢ برقم: ٢٩٠٦).
(٢) ابن حبان (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٨١) والطبراني في الكبير (برقم: ١٥٣٩).

ولقد أدرك الصحابة -رضوان الله عليهم- قيمة وقدر القرآن العظيم وأنه سبيل النجاة والهدى بإذن الله.

فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب في المسلمين حين بايعوا أبا بكر الصديق بالخلافة فيقول: «فاختار الله لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم، فخذوا به تهتدوا، وإنما هدى الله به رسوله»[١].

وعن جويرية بن قدامة أنهم دخلوا على عمر بن الخطاب وقد طُعن، فقالوا له: أوصنا، فقال: عليكم بكتاب الله فإنكم لن تضلوا ما اتبعتموه[٢].

وعن زيد المرادي قال: شهدت ابن مسعود خطيبًا فقال: «الزموا القرآن وتمسكوا به» حتى جعل يقبض على يديه صفًّا كأنه أخذ بسبب شيء[٣].

وقال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى:

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قال: القرآن[٤].

وخرَج جُندب بن عبد الله البَجَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سَفَرٍ له، فخرج معه ناسٌ من قومه حتى إذا كانوا بالمكان الذي يودِّع بعضهم بعضًا، قال:

أي قوم! عليكم بتقوى الله، عليكم بهذا القرآن، فالزموه على ما كان من جهد وفاقة، فإنه نور بالليل المظلم، وهدى بالنهار[٥].

---

(١) البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (برقم: ٧٢٦٩).
(٢) انظر مسند الإمام أحمد بتحقيق شعيب الأرنؤوط (١/ ٤٣١ برقم: ٣٦٢).
(٣) ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٤٦٥ برقم: ٣٠٦٣٧).
(٤) ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٤٦٥ برقم: ٣٠٦٤٠).
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٤٦٣ برقم: ٣٠٦٣١) طبعة عوامة كتاب فضائل القرآن باب في التمسك بالقرآن.

من هنا يتأكد لنا أن القرآن هو القادر -بإذن الله- على انتشالنا من الضياع الذي وصلنا إليه، وعلى جمع كلمتنا، وتخليصنا من الفرقة، ولم لا وهو الكلمة السواء التي لا يختلف عليها اثنان من أبناء الأمة.

وغني عن البيان أن الحديث عن القرآن يشمل السنة بالتبعية، فالسنة شارحة للقرآن مبينة لما أُجمل فيه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

حالنا مع القرآن

عندما تمسك الجيل الأول بحبل الله المتين، واتبعوا نور كتابه المبين، اجتمعت كلمتهم، وتوحدت وجهتهم، وأصبح الله هو غايتهم، فأوفى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعهده معهم، ومكَّنهم في الأرض ليرفعوا عليها رايته، ويقيموا عليها شريعته.

وعندما تركت الأمة بعد ذلك هذا الكتاب وأدارت ظهرها له، حدثت لها النكبات والهزائم والنكسات.

تخيل معي أُناسًا وقد تعلقوا بحبل الله، والأرض من تحتهم تملؤها القاذورات والصراعات والأحقاد، ثم ترك هؤلاء الحبل، ماذا سيحدث لهم؟!

بلا شك أنهم سيقعون على الأرض ويتمرغون في أدناسها، ويتصارعون على ما فيها من دنايا، ... وهذا ما حدث معنا عندما تركنا القرآن -حبل الله المتين- فوقعنا على الأرض، وتمرغنا في شهواتها، وأصبحت الدنيا هي أكبر همنا، ومبلغ علمنا، فاشتد الصراع بيننا، وتفتت وحدتنا، وصار بأسنا بيننا شديدًا، فتكالب علينا أعداؤنا كما تتكالب الأكلة على القصعة، وأصبحنا أذل أهل الأرض، تحت أقدام الكفار لا اعتبار لنا، ولا قيمة لوجودنا، بل إن اليهود الذين كتب الله عليهم الذلة والمسكنة

باتوا يتفننـــون في إذلالنا، وهدم بيوتنا، وانتهاك حرماتنا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ضرورة العودة إلى القرآن

مـــن هنا نقول بأن نقطـــة البداية التي ينبغي أن نبـــدأ بها ليتم التغيير الداخلي المنشود، هي العودة إلى القرآن.

ولسنا نعني بتلك العودة تخريج أكبر عدد ممكن من حفاظ حروفه.

ولسنا نعني بالعودة قراءته بالحناجر فقط، أو تعليق آياته على الجدران، أو افتتاح الحفلات به.

بل نعني بالعودة الدخول إلى دائـــرة تأثره، والتعرض الحقيقي لمعجزته التأثيرية الفذة، ليتم من خلاله التغيير المنشود، فنكون من بعده عبيدًا لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

• • •

كيفية التغيير القرآني

قبل أن ينتقل الحديث عن الطريقة التي يمكننا من خلالها -بعون الله- الدخول إلى عالم القرآن ودائرة تأثيره، يبقى من الضروري الإجابة عن تساؤل قد يتبادر إلى بعض الأذهان عن الكيفية التي بها يقوم القرآن بالتغيير، وبخاصة وقد خلصنا في صفحات سابقة إلى أن التغيير المنشود لا بد أن يشمل العقل والقلب والنفس، وأن يظهر أثره على السلوك، وتكون نتيجته: «**ظهور المسلم الصالح المصلح الذي تتأسس عليه الأسرة المسلمة فالمجتمع المسلم**».

ألا يكفي وصف الله لكتابه؟!

نعم، نحن لسنا مطالبين بمعرفة كيفية التغيير القرآني، فيكفي ما أخبرنا به الله عَزَّوَجَلَّ عن هذا الكتاب، ووصفه له بأنه هدى يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ودواء لما يعانون منه من أدواء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

ومع ذلك، فبسبب ما ورثناه من تعامل خاطئ مع القرآن، وعدم اقتناع البعض بأن الحل في هذا الكتاب، وبسبب عدم وجود أثر ملحوظ للتغيير على الكثير ممن ينشغلون بالقرآن، ويحفظون حروفه، ويكثرون من تلاوته، ...

كل ذلك وغيره أفقدنا بعض الثقة في قدرة القرآن على التغيير، وانحصر دوره في حياتنا ليصبح مصدرًا للأجر والثواب دون النظر للمقصد الأسمى من نزوله.

من هنا كان من الضروري الحديث عن كيفية التغيير القرآني، والتي لا يستطيع أن يدرك كنهها أحد من البشر، فالمعجزة القرآنية وتأثيرها على الفرد يفوق ما يمكن تخيله، والمحروم من حُرم التمتع بآثارها.

القرآن والعقل

في الصفحات السابقة استعرضنا معًا الأسباب التي تحول بيننا وبين أن نكون عبيدًا مخلصين لله عَزَّوَجَلَّ، والتي تنطلق من محاور ثلاثة: العقل، والقلب، والنفس؛ ومن ثَمَّ فإن التغيير الحقيقي في ذات الإنسان ينبغي أن يشمل هذه المحاور الثلاثة.

فإذا ما نظرنا إلى العقل وجدنا أن بداية التغيير الحقيقي فيه تأتي من خلال فكر الإنسان وقناعاته واهتماماته وتصوراته، وهذا يشمل العقل المدرك، والعقل الباطن غير المدرك، بل إن التغيير في العقل الباطن هو الأهم باعتباره مصدرًا للأفعال التلقائية، والتي قد تتناقض مع قول المرء وما يدعو إليه، من هنا كان من الضروري استبدال الأفكار الخاطئة الراسخة في اللاشعور بأخرى صحيحة. **وهنا يأتي دور القرآن المتفرد.**

فمن أهم سماته أنه كتاب يخاطب العقل، ويُعلي من شأنه، ويستثير صاحبه إلى استخدامه كأداة عظيمة للتفكر؛ ومن ثَمَّ الوصول إلى الحقائق التي يقوم على أساسها الوجود.

يطرح عليه القضايا الكلية التي يقوم عليها التصور الإسلامي الصحيح لمفردات الحياة والكون المحيط، ويُقنعه بها.

يؤسس عنده عقيدة التوحيد بصفاء وسهولة، بل إنه يجعل قارئه يصل إلى قناعة تامة بكل ما يتعلق بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وحقوقه علينا، فيطرح عليه القضايا الاعتقادية من بدايتها: هل للكون إله؟ من هو؟ وما اسمه؟ هل معه شريك؟ هل له زوجة؟ هل له ولد؟

هذه الأسئلة الخطيرة يجيب عنها القرآن بكل سهولة ويسر، بل ويعرض وجهة النظر المخالفة في بعض الأحيان حتى يفندها ويبطلها تمامًا، كقوله تعالى:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ومع التعريف بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصفاته يُعرِّف القرآن قارئه بعالم الغيب، ويثبت له بالأدلة العقلية قضية البعث والحساب والجزاء:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس: ٧٨-٨٠].

> **والقرآن يجيب عن التساؤلات الحائرة في ذهن الإنسان، ويؤصل لديه التصورات الصحيحة لكل ما يتعامل معه من مفردات الحياة؛ كنظرته للرزق، والمستقبل، والزوجة، والأولاد، والمال...، وكل ما يتعلق بأموره الدنيوية.**

ويبيِّن كذلك أصول الشريعة وقواعدها الكلية، وأنها ما شُرعت إلا رحمة للعباد: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

تكوين العقلية المتوازنة

ومع هذا كله، فالقرآن كذلك يرسم في ذهن قارئه شجرة الإسلام بجذورها وأصولها وفروعها، ويُعطي كل شيء فيها حجمه الذي يتناسب مع أهميته؛ فأعمال القلوب -على سبيل المثال- مقدمة في الأهمية على أعمال الجوارح، ويبين ذلك قوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [الحج: ٣٧].

وعندما نجد القرآن يُفرد مساحة كبيرة للإنفاق في سبيل الله، فإن هذا معناه إعطاء الأمر أهمية تتناسب مع مكانته في القرآن، وهكذا.

بناء اليقين الصحيح

فإذا تمَّ الاقتناع بكل القضايا التي يقوم عليها التصور الإسلامي للحياة والكون، وعالم الغيب والشهادة، تأتي السمة الأخرى للقرآن، وهي قدرته الفريدة على ترسيخ هذه الأفكار والتصورات وبناء اليقين الصحيح بها في العقل الباطن من خلال عرضها بأساليب مختلفة: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الكهف: ٥٤].

تأمل معي عرض القرآن لموضوع الجهاد في سبيل الله، أو الرزق، أو قيمة الدنيا، وابحث عن عدد المرات التي تمَّ فيها عرض هذه الموضوعات.

وانظر كذلك في قصص السابقين، وسل نفسك: كم سورة تمَّ فيها تناول قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وبني إسرائيل كمثال يتكرر، ومن خلال تكراره تترسخ المعاني التي تتناولها هذه القصص في العقل الباطن.

وخلاصة القول:

إن القرآن يقوم بإعادة تشكيل العقل وبناء اليقين الصحيح فيه، فتتغير تبعًا لذلك تصورات صاحبه واهتماماته؛ ومن ثم تلقائية أفعاله.

القرآن والقلب

من الأسباب الرئيسة للسلوك الخاطئ: ضعف الإيمان في القلب، وغلبة الهوى عليه، فعلى قدر الإيمان تكون الأفعال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾** ﴾ [الحج: ٣٢].

وكان من دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ**»(١).

الإيمان والهوى

الإيمان محله القلب، وكذلك الهوى.

والقلب هو مجمع المشاعر داخل الإنسان.

معنى ذلك أن تأثر المشاعر وانفعالها مع قضية ما؛ تؤدي إلى زيادة الإيمان أو الهوى في القلب حسب نوع القضية التي يتم التجاوب معها.

فإذا ما انفعلت المشاعر مع أي عمل إيماني -كحال البعض عند الدعاء مثلًا- فإن هذا الانفعال من شأنه أن يزيد الإيمان في القلب.

---

(١) حديث حسن: سنن الترمذي في الدعوات (باب:٨٠ برقم: ٣٥٠٢) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٨٢).

وإذا مـــا تأثرت المشـــاعر وتجاوبت مع أمر يخدم الهوى -كحـــال البعض مع ما يسمى بالأغاني العاطفية- فإن ذلك يؤدي إلى زيادة الهوى في القلب.

وللقـــرآن طريقة فريدة في زيادة الإيمان في القلب وطـــرد الهوى منه، وذلك من خلال قدرته على التأثير في مشاعر الإنسان بمواعظه البليغة وقوة سلطان ألفاظه على النفـــس: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ويزداد قوة تأثير القرآن على القلب، إذا ما تغنى صاحبه به ورتله ترتيلًا صحيحًا يهز المشـــاعر، ويحول القناعات التي اســـتنتجها العقل مـــن خلال تفكره في الآيـــات إلى إيمان في القلب. فلحظـــات الانفعال والتجاوب القلبي مع القراءة تعنـــي دخول بعض آثار نور هذه الآيات إلى القلب؛ وبتكرار التفكر النافع في القرآن وتفاعل المشـــاعر معه والمداومة على ذلك تحل هذه المعاني في القلب وتحتل جزءًا من مشاعره مما يؤدي إلى زيادة الإيمان -بإذن الله-.

وكلما زاد الإيمان في القلب انعكس ذلك على الجوارح بأعمال صالحة لم يكن من السهل قبل ذلك القيام بها.

وشيئًا فشـــيئًا تعود الحياة إلى القلب، ويتم تنويره بنور القرآن، وينزوي الهوى، وتقل مساحته، إلى أن تأتي لحظة من أهم لحظات العمر؛ لحظة تحرر القلب بأكمله من ســـلطان الهوى، ليصبح قلبًا حيًا سليمًا يملؤه نور الإيمان، فينطلق بعد ذلك في رحلته المباركة سائرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، مســـتصحبًا معه الدليل الأمين -القرآن العظيم- الذي يقوم بهذا الدور على أحسن ما يكون من خلال تعريفه بربه، لتثمر هذه المعرفة عبادات قلبية من خشية ورجاء وحب وإجلال وتوكل وإنابة وثقة واستعانة وطمأنينة، ...

وكلـــما تعرف العبد على ربه أكثر تغيرت معاملته له؛ ومن ثم ازداد قربه منه، كل

هــذا يفعله القرآن بســهولة ويسر ودون تكلــف: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

القرآن والنفس

تشكل النفس أكبر عائق في طريق إخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، فهي تحاول دومًا أن يكون لها نصيب من كل فعل يقوم به الإنســان اســتيفاء لحظوظها، وإرواء لشهواتها التي لا تنطفئ. هكذا خلقها الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن وسائلها في نَيل حظوظها: ســعيها لعلو منزلتها عند الناس كي يمدحوها ويعظموها، وذلك عن طريق تعريفهم بالأعمال الصالحة التي تقوم بها.

ومن وســائلها كذلك: تضخيم العمل في عــين صاحبها بعد قيامه به، فتزين له العمل وأنه يســتحق به الدرجات العلى عند ربه، وأنه قد أصبح مميزًا عن أقرانه بهذا العمل!!

ومنها: أنها تُشــعر صاحبها بأن إمكاناته ومواهبه ملك ذاتي له، متى استدعاها وجدها واستعان بها على ما يريد فعله، فتُصور له -مثلًا- أن ذكاءه ذكاء ذاتي يستطيع أن يغلب به غيره وقتما شــاء، وتُصور له أنه سريع الحفظ، وأنه يمكنه متى شــاء أن يحفظ أي كلام يريد حفظه في وقت قصير، فيتولد عن ذلك إعجاب المرء بنفسه؛ ومن ثمَّ غروره بها وتكبره على الآخرين.

والنفس محبوبة، وما تدعو إليــه محبوب، من هنا تبرز صعوبة مجاهدتها وإلزامها التجلبب بجلباب العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك؛ فإن القرآن الكريم قادر بإذن الله على الانتصار في هذه المعركة.

وتكمن طريقة القرآن الفريدة في التعامل مع النفس من خلال محورين رئيسين هما: معرفة الله، ومعرفة النفس، مع ممارسة مقتضى تلك المعارف.

معرفة الله

كلما ازدادت معرفة الواحد منا بشخص ما تغيرت معاملته له، فعلى قدر المعرفة تكون المعاملة، وهذا أمر نلمسه جميعًا من خلال علاقاتنا مع الآخرين، واختلافها من شخص لآخر.

من هنا تبرز أهمية معرفة الله عَزَّوَجَلَّ معرفة صحيحة وعميقة حتى تتغير معاملاتنا له، فخشية الله -وهي صورة من صور المعاملة معه سبحانه- ثمرة من ثمرات العلم به: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

فلكي نخلص أعمالنا لله، كصورة من صور تعاملنا معه، فإن هذا يستلزم منا معرفته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبخاصة في جوانب معينة، منها:

التعرف على الله القوي الجبار؛ لتورث هذه المعرفة خوفًا وخشية منه، تدفع لصدق التوجه إليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨، ٩]، ما الذي دفعهم لذلك؟ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠].

التعرف على الله القريب، السميع، الشهيد، البصير؛ لتورث هذه المعرفة في القلب حياء منه سبحانه، مما يدفع صاحبه إلى الإخلاص أكثر وأكثر.

معرفة الله الغني الحميد، وأنه لا يحتاج إلى أعمالنا، وأن حجم ما نقوم به من طاعات لا يساوي شيئًا بجوار تسبيح الكون المتواصل لله عَزَّوَجَلَّ.. فيؤدي ذلك إلى

استصغار واستقلال أعمالنا، فنؤدي الطاعة ونستغفر الله بعدها كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

معرفة الله المنعم ومعرفة صور إنعامه علينا: وأننا مطالبون بشكر هذه النعم؛ مما يؤدي إلى عدم رؤية العمل، واستشعار أن دخول الجنة هو محض فضل من الله عَزَّوَجَلَّ.

معرفة الله الرب القيوم: وأنه هو الذي يقوم بإطعامنا وسقايتنا ونومنا ويقظتنا ورعاية كل ما في أجسادنا من أعضاء وأجهزة، وأنه سبحانه يعيننا على القيام بالطاعة، ويعصمنا من الوقوع في المعصية: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، هذه المعرفة تؤدي إلى استشعار عظيم فضل الله علينا، وأننا به لا بأنفسنا، فيؤدي ذلك إلى صدق الاستعانة به، وعدم الاتكال على النفس.

معرفة الله الملك: وأنه لا ملك إلا ملكه، ولا يملك أحد سواه شيئًا، فيؤدي ذلك إلى قطع الطمع فيما عند الناس والزهد فيهم، وعدم العمل من أجلهم، فالكل فقير ومحتاج إلى من بيده ملكوت كل شيء.

التعرف على الله من خلال القرآن

هذه المعارف وغيرها لها دور كبير في إخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، وعلى قدر تمكنها من القلب وتعمقها فيه يكون صدق معاملة العبد لربه، وأفضل وسيلة لتحقيق هذه المعارف: القرآن الكريم، فمن أهم سماته أنه كتاب تعريف بالله عَزَّوَجَلَّ، وبأسمائه وصفاته، وآثارها، ولا يكتفي القرآن بالتعريف النظري بالله عَزَّوَجَلَّ، بل ويرشد قارئه إلى كيفية ربط هذه المعرفة بأحداث الحياة: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فعلى سبيل المثال: القرآن يُعرفك بربك المنتقم، ويُعدد لك صور عقابه للمسيء، فإذا ما قمت بإسقاط هذه المعرفة على واقع حياتك فستجد أن هناك عقوبات تُجرى عليك نظير إساءتك، كوحشة في الصدر، أو تعسير في الأمور، فيؤدي ذلك إلى مسارعتك بالاستغفار والتوبة لكي توقف تلك العقوبات: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

معرفة النفس

وكما أن القرآن يُعرف المرء بربه فيثمر ذلك معاملة صحيحة له سبحانه؛ فإنه كذلك يُعرِّفه بنفسه فيتعامل معها بما ينبغي أن يكون.

ومن جوانب تلك المعرفة: التعرف على حقيقة الإنسان وأصله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠]، وأنه ضعيف عاجز: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]. لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. يحتاج إلى مولاه مع كل طرفة عين ملايين ملايين المرات.

ومع تعريف القرآن للمرء بهذه الحقائق، فإنه يُعرفه كذلك بطبيعة نفسه، وحبها للشهوات، وميلها للفجور، وأنها لو تُركت لما أمرت بخير:

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. كل ذلك ليشتدَّ حذر الإنسان منها، فلا يركن إليها ولا يرضى أو يفرح بها، بل يفرح بفضل ربه ويركن إليه وحده:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

الخلاصة

وخلاصة القــول: إن السر الأعظم لمعجزة القرآن يكمن في قدرته على تغيير أي شــخص يدخل إلى دائرة تأثيره الحقيقية، فيعيد تشــكيله من جديد وذلك من خلال النقاط التالية:

أولًا: تغيير أفــكاره وتصوراته الخاطئــة عن مفردات الحياة، وإرســاء قواعد التصور الإســلامي الصحيح في عقله الباطن؛ لينبني بذلك اليقين الصحيح داخله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١].

ثانيًا: كلما تغيرت الأفكار والتصورات تغــيرت الاهتمامات، ليصبح هم الفرد وأحلامه وتطلعاته فيما يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ.

ثالثًا: عندما تتغيير الاهتمامات تتغير طريقة تعامل الشــخص مع كل من حوله، فتصغر الدنيــا في عينيه؛ فلا تراه يتنافس مع المتنافســين في أمورها. يُربي أولاده على حب الله والتعلق به، يتعامل مع زوجته وأهله من منطلق إيماني يســعى فيه لرضا الله عَزَّوَجَلَّ.

رابعًــا: ومن صور التغيير القرآني أنه يُشعر صاحبه بقيمته في الكون، وأنه قائده، فينطلق فيه فاتحًا مستكشفًا لأسراره، منتفعًا بقوانين تسخيره له.

خامسًا: والقرآن كذلك يضبط الفهم، ويقوم بتكوين الشخصية المعتدلة المتوازنة التي تُعطي كل ذي حق حقه، وتعرفها كيفية ترتيب الأولويات.

سادسًــا: ومن أهم صور التغيير القرآني أنه يوقد شعلة الإيمان بالقلب ويوطده فيه ويطرد منه الهوى؛ وكلما ازداد الإيمان ازداد الدافع لفعل الصالحات.

سابعًا: ويستمر القرآن في زيادة الإيمان إلى أن يُحرر القلب من الهوى، لينطلق به إلى السماء قلبًا ربانيًا موصولًا بالله عَزَّوَجَلَّ، ويكون دومًا في سير إليه -سبحانه- من خلال تقلبه في ألوان عبوديته له من حب ورجاء وتوكل وإنابة وإجلال وخشية و...

ثامنًا: والقرآن يولد الطاقة ويقوي العزيمة في قلب صاحبه؛ مما يدفعه إلى العمل على تصريف تلك الطاقة بالقيام بأعمال البر المختلفة دون انتظار لتوجيه من أحد، فكلما فُتح له بابٌ من أبواب الخير سارع بالولوج إليه، فتراه مجاهدًا مع المجاهدين، وداعية مع الدعاة، خير زوج لزوجته، وخير أب لأبنائه، وجار لجيرانه.

تاسعًا: ومن أعظم صور التغيير القرآني أنه يُعرِّف صاحبه بالله عَزَّوَجَلَّ، فيعظم قدره عنده، مما يزيده إخلاصًا له، وصدقًا في التوجه إليه، وربطًا لأحداث الحياة به سبحانه.

عاشرًا: والقرآن كذلك يعرفنا بحجم أنفسنا وقيمتها وخطورتها، فتصغر في أعيننا وتتحطم أصنامنا، ليجد العمل الصالح بعد ذلك طريقه إلى الله عَزَّوَجَلَّ يزينه الصدق والإخلاص.

فهذه وغيرها صور التغيير الذي يُحدثه القرآن في الشخص الذي يُحسن الإقبال عليه، ويُسلم له قياده؛ ليصبح من خلاله شخصًا آخر قد ارتدى رداء العبودية لله، وبدأ في ممارسة الوظيفة التي نزل على الأرض من أجل القيام بها، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٧، ٢٨].

• • •

كيف ننتفع بالقرآن؟

تعرفنا -مما سبق- على شيء يسير من الكيفية والطريقة التي من خلالها يُحدث القرآن أثره التغييري العظيم في ذات الفرد -أي فرد- ليصبح عبدًا مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ، مستقيمًا على أمره مبتغيًا دومًا رضاه.

لذلك نقول بأن القرآن الذي بين أيدينا هو الوسيلة التي من خلالها سنكون -بمشيئة الله- كما يحب ربنا ويرضى، فيتحقق تبعًا لذلك وعده الذي وعد به عباده الصالحين بالنصر والتمكين: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والأمر اللافت للانتباه أن الرسول ﷺ حين أخبر عما سيحدث من فتن أخبر كذلك على الطريقة المثلى للخروج منها؛ ألا وهي التمسك بالقرآن، فعندما سأله حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أبعد هذا الخير الذي نحن فيه من شر نحذره؟! قال ﷺ: «**يَا حُذَيْفَةُ؛ عَلَيْكَ بِكِتَابِ اللهِ فَتَعَلَّمْهُ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ خَيْرًا لَكَ**»(١).

(١) ابن حبان كتاب العلم باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من تعلم كتاب الله جل وعلا واتباع ما فيه عند وقوع الفتن خاصة (١/ ٣٢٣ برقم: ١١٧)، أبو داود في الفتن والملاحم باب ذكر الفتن (برقم: ٤٢٤٦)، الإمام أحمد (٥/ ٣٨٦)، (٤/ ١٥٠-١٥٣)، الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩١ برقم: ٨٠١، ٨٠٢).

وعندما سمع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ يقول: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ**»، فقال: وما المخرج منها؟ قال ﷺ: « **كِتَابُ اللهِ**...» الحديث [١].

مشروع النهضة

إذا كان القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يمكن أن يختلف عليه اثنان.

وإذا كان القرآن هو المعجزة التي يمكنها أن تُغير من يُحسن التعامل معها، وتضعه في قالب العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

وإن كان القرآن هو المخرج من الفتن التي تعصف بنا.

فلا بد -إذن- أن نعود جميعًا إلى القرآن، فالعودة إليه تُمثل طوق النجاة، ومشروع النهضة للأمة جمعاء، ولم لا وقد جعله الله عَزَّوَجَلَّ ميسرًا للذكر، فيسع بذلك جميع أفراد أمتنا الإسلامية برجالها ونسائها، بشبابها وشيوخها، بعربها وعجمها[٢].

وسائل مقترحة

نعم، الدخول إلى عالم القرآن ودائرة تأثيره يحتاج منا إلى جهد ومثابرة، وبخاصة في البداية حتى نستطيع تجاوز الطريقة التي اعتدنا عليها في تعاملنا مع هذا الكتاب والتي تهتم باللفظ أكثر من المعنى.

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٢ برقم: ٢٩٠٦)، كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن، الدارمي (٢/ ٤٣٥ برقم: ٢٩٠٦)، مسند الإمام أحمد (١/ ٩١).

(٢) قد يقول قائل: وكيف للأعجمي أن يعود للقرآن وهو لا يفهمه؟! الحل في هذه المعضلة يكمن في ضرورة تعلمه اللغة العربية كما كان يحدث في الماضي، مع العلم بأن قراءة معاني القرآن المترجمة للغات المختلفة لا تُغني عن التعامل المباشر مع القرآن، والانتفاع بقوة تأثيره على المشاعر، من هنا كان من الضروري لغير الناطقين بالعربية أن يجعلوا من أولى أولوياتهم تعلم اللغة العربية ليتسنى لهم حُسن الدخول إلى دائرة تأثير القرآن.

وأكبر عامل يساعدنا على تجاوز طريقتنا الشكلية مع القرآن، ويدخلنا إلى دائرة تأثيره، ويذيقنا حلاوة الإيمان الناتج عنه: الاستعانة الصادقة بالله عَزَّوَجَلَّ، والإلحاح عليه بالدعاء؛ دعاء كدعاء المضطر المشرف على الغرق، ندعوه أن ينفعنا بمعجزة القرآن، وينور قلوبنا بنور آياته، ويحييها بمعرفته.

ولك -أخي القارئ- أن تتأكد من أهمية ذلك عندما تقرأ دعاء النبي ﷺ وتستشعر ما فيه من معاني الإلحاح على الله عَزَّوَجَلَّ بأن يفتح القلوب لأنوار القرآن وأن يكون غيثًا لقلوبنا ونورًا لصدورنا، يقول رسول الله ﷺ: «**مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ تَعَالَى هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا**»[1].

ولنعلم جميعًا بأن الإمداد بحسب الاستعداد، وعلى قدر الإناء الفارغ الذي نقدمه يكون قدر الامتلاء، فلا نبخل على أنفسنا بالمدد الإلهي غير المحدود، والذي ينتظر سؤال السائلين: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومع الاستمرار في الدعاء والإلحاح على الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هناك بعض الوسائل المعينة على العودة الهادئة والمتدرجة إلى القرآن، علينا أن نجتهد في الأخذ بها جميعًا، وهي:

(١) أخرجه الحاكم كتاب الدعاء باب دعاء ما يذهب الهم والحزن (١/ ٥٠٩).

أولًا: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح.

ثانيًا: الانشغال بالقرآن والمداومة على قراءته يوميًّا.

ثالثًا: التهيئة الذهنية والقلبية.

رابعًا: القراءة الهادئة الحزينة من المصحف بصوت مسموع وبترتيل.

خامسًا: التركيز في القراءة وعدم السرحان.

سادسًا: الإنصات التام أثناء التلاوة

سابعًا: الفهم الإجمالي للآيات.

ثامنًا: التجاوب مع القراءة.

تاسعًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب.

عاشرًا: مدارسة الآيات والعمل بمقتضاها.

أولًا: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح

لكي تتم لنا الاستفادة الحقيقية من القرآن ويكون دليلًا يهدينا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسببًا يقربنا إليه ويصلنا به، ودواءً نستشفي به من أمراضنا، ومصدرًا متفردًا لزيادة الإيمان في قلوبنا، وجلاءً للهموم والغموم والأحزان ومنبعًا صافيًا لتحصيل العلم النافع.. لكي يتم لنا كل هذا وغيره.. لا بد من الدخول إليه من بابه الصحيح..

إن الباب الصحيح -الذي لا باب غيره- للانتفاع بالقرآن وتحقيق مراد الله بنزوله يستلزم الاعتقاد الجازم أنه المصدر المتفرد الذي لا مثيل له لتحصيل الهداية الشاملة الكاملة، والشفاء التام، والعلم النافع، والتغيير الجذري، وأن يتم التعامل معه بناء على هذا الاعتقاد، وهو ما تعبر عنه عبارة «الإيمان قبل القرآن».. أي: الإيمان بأن القرآن هو المصدر الوحيد للهداية الشاملة التامة وأنه لا يمكن تحصيلها بدونه..

.. والإيمان بأن القرآن هو الدواء الناجع المتفرد لشفاء القلب وعودته إلى صحته وفطرته..

.. والإيمان بأن القرآن هو المصدر الأسمى للعلم النافع المقرب إلى الله، والمورث لخشيته، وأنه لا يوجد مصدر آخر يضاهيه أو يقترب منه..

.. والإيمان بأن القرآن هو القادر -بإذن الله- على تغيير أي إنسان، ومن أي وضع سلبي هو فيه إلى الحال الذي يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فيلحقه بصفوف عباد الله الصالحين المصلحين..

.. علينا أن نستحضر هذا المعنى حين ندخل إلى القرآن.. فالغاية من نزول القرآن هو: تحصيل الهداية التامة والشفاء الكامل والتغيير الجذري.. فينبغي أن يكون منطلق علاقتنا بالقرآن مرتبطًا بهذه الغاية.. ويكون الهدف الأول من اللقاء معه تحصيل هدايته وشفائه وتقويمه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. والدليل العملي على صحة هذا الإيمان وتلبسنا به هو مراقبة حالة الترقب واللهفة لتلاوة القرآن، والتعامل معه بنفسية الأمي الشغوف المستعد للتنازل عن تصوراته ومفاهيمه وما فيها من خطأ أو خلط واستسلامه لتصورات ومفاهيم القرآن، وكذلك مراقبة مدى استعداده للعمل بما علم من القرآن..

ثانيًا: الانشغال بالقرآن والمداومة على قراءته يوميًّا

إن كان القرآن هو الحبل الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض لينتشلنا مما نحن فيه.

وإن كان القرآن هو الحل لتغيير الوضع الأليم الذي نحياه.

وإذا كان القرآن هو الذي سيعيد لنا فلسطين والعراق وكشمير وتركستان والفلبين... وكل أراضي المسلمين المغتصبة.

- **فبأي حال سيكون تعاملنا معه؟**
- **كم من الوقت سنعطيه، وكم من الاهتمام سنوليه؟**

ألا توافقني -أخي القارئ- أنه بعد وضوح الرؤية لمدى فاعلية المعجزة القرآنية وإمكانياتها في التغيير، ألا توافقني أنه من الضروري أن يكون القرآن هو شغلنا الشاغل ومحور اهتماماتنا، وأن نعطيه أفضل أوقاتنا وأكثرها؟

نعم، سيكون هذا على حساب الوقت المخصص لقراءة الصحف والمجلات أو مشاهدة الفضائيات...

ولكن، ألا تستحق النتائج المترتبة على الانشغال بالقرآن هذا الاهتمام؟

ألا تستحق السعادة التي سنجني ثمارها في نفوسنا وبيوتنا وأمتنا هذا الانشغال؟

وصية أبي الدرداء

عن أبي قلابة أن رجلًا من أهل الكوفة لقي أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إن إخوانًا لك من أهل الكوفة يقرئونك السلام، ويأمرونك أن توصيهم. فقال: أقرئهم السلام، ومرهم فليعطوا القرآن بخزائمهم، فإنه يحملهم على القصد والسهولة، ويجنبهم الجور والحزونة[1]. والخزائم جمع خزامة، وهي حلقة من الشعر توضع في وتر أنف البعير يشد بها الزمام. والمراد، أي: اجعلوا القرآن يقودكم واستسلموا له.

وخلاصة القول: إن الانشغال بالقرآن هو نقطة البداية لحسن الدخول إلى دائرة تأثيره القوية والمتفردة، لذلك فلا يصح أن يمر يوم دون لقاء ومعايشة مع هذا الكتاب.

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٧٢).

فإن قلت: وكم من الوقت سأعطيه للقرآن؟

كلما أعطينا للقرآن وقتًا أطول كان نضج الثمرة أقرب، والتغيير أسرع.

دفع شبهة

ليس معنى الانشـغال بالقرآن ترك القراءة والاطـلاع في الكتب الأخرى من فـروع الثقافة الإسـلامية، ولكن المقصد ألا يكون الاهتمام بهـا مقدمًا على الاهتمام بالقـرآن كما هو حادث الآن، علينا أن نجعل القراءة في القرآن وتفهمه والتأثر به على أعلى سلم أولوياتنا واهتماماتنا، وأن تكون القراءة في الكتب الأخرى المفيدة والنافعة تاليـة له، وأن نجعلها تـدور في فلكه، وتكون بمثابة المراجع الموسـعة لموضوعاته؛ تشرح علومه، وتفتح الآفاق لفهمه أكثر وأكثر، ويأتي على رأس تلك العلوم: السـنة النبوية والتي تلي القرآن في الأهمية؛ فهي شـارحة لـه مبينة لكثير مما أُجمل منه، بل إن السنة لها وضع خاص فهي الوحي الثاني.

قال رسول الله ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا؛ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[1].

بهذا المفهوم لن يكون هناك تعارض بين القرآن وبين كتابات العلماء، مع الوضع في الاعتبار أن أهم أوقاتنا ينبغي أن تكون للقرآن؛ لنسمح له ونمكنه من إجراء التغيير المنشود داخلنا.

ولقد كان الصحابة شديدي الحرص على تبليغ هذه الوصية لمن بعدهم، فعندما جاء اثنان من التابعين لعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بصحيفة فيها كلام حسن ويريدان

(١) الجامع الصغير (برقم: ٣٢٨٢) وعزاه للحاكم (١/ ١٧٢ برقم: ٣١٩).

منه الاطلاع عليه، فما كان منه إلا أن نادى على الخادم ليُحضر الطست، ثم سكب عليها الماء وجعل يمحوها بيده ويقول: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]، فقالوا له: انظر فيها، فإن فيها حديثًا عجبًا، فجعل يمحوها ويقول: إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره[١].

وهذا هو المطلوب: ألَّا نشغل القلوب بشيء غير القرآن وبخاصة في البداية.

ثالثًا: التهيئة الذهنية والقلبية

ومع الانشغال اليومي بالقرآن ينبغي أن نهيئ الجو المناسب لاستقباله ولقائه، فلا يصح أن نلتقي به في مكان تملؤه الشواغل والضوضاء؛ مما يشوش على الذهن ولا يجمع القلب مع القراءة.

فإن قلت: ولكني أستطيع -بفضل الله- التركيز مع القراءة في أي مكان مثل وسائل المواصلات.

نعم قد يمكنك ذلك، ولكن ماذا تفعل إذا حدث لك تجاوب وتأثر بالقراءة، هل ستبكي أمام الناس؟ هل سترفع يديك بالدعاء في حضورهم؟!!

إننا نريد من القرآن التغيير، وهذا يتطلب مكانًا هادئًا بعيدًا عن الأعين والأصوات. فلنخصص إذن مكانًا مناسبًا في بيوتنا لهذا الغرض، فإن لم نستطع ففي ركن بعيد من أركان المسجد، فإن لم نستطع فلن نُعدم مكانًا هادئًا إذا ما أردنا ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ**»[٢].

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٧٣).

(٢) الطبراني في الأوسط (برقم: ٢٦٨٤)، أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ١٧٤)، الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد تحقيق بشار عواد (٦/ ٤٤٢).

ومـــع المكان الهادئ علينا أن يكون لقاؤنا مع القرآن في أفضل أوقاتنا، حيث قوة التركيز والنشاط، ولا ننسى الوضوء والسواك فإنهما من وسائل التهيئة كذلك.

هذا من ناحية التهيئة الذهنية والنفسية، أما من ناحية التهيئة القلبية، فكلما كانت المشاعر في حالة من الاستثارة والخشية، كان تأثر القلب بالقرآن أقوى، كما قال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلى: ١٠].

وفي قصة إســـلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يؤكـــد هذا المعنى، فعندما ضرب أخته فاطمة وســـال الدم على وجهها رق قلبه واستُثيرت مشـــاعره، فلما استمع إلى القرآن وهو بهذه الحالة الشعورية انجذب القلب له ودخل نوره إليه بإذن الله.

وهذا ما نريده، أن نســـتثمر أوقـــات التأثر التي نمر بهـــا في يومنا، فنهرع حال وجودها إلى القرآن فنقرؤه، ونعيش معه بعقولنا ومشاعرنا، فيمتزج الفكر بالعاطفة، ويزداد القلب خشوعًا وإيمانًا.

في حالة عدم وجـــود مثل هذه الأوقات في اليوم، علينا أن نعمل على اســـتثارة مشاعرنا قبل التلاوة بالتفكير في الموت وسكراته وأحداث يوم القيامة، أو بالقراءة في كتاب مـــن كتب الرقائق، أو الاســـتماع إلى موعظة ترقق القلب وتؤهله لاســـتقبال القرآن.

وهنـــاك الكثير من الآيات التي تؤكد على أن الانتفاع الحقيقي بالقرآن يســـتلزم وجود قلب خاشع يستقبله، قال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [طه: ١-٣].

نعم، هذه الوســـيلة ســـتحتاج منا إلى بعض الجهد، وبخاصة في البداية، ولكن بمرور الوقت وبدء عملية التغيير، ومع الزيادة المســـتمرة للإيـــمان في القلب والتي

سيحدثها القرآن بمشيئة الله، ستصبح المشاعر مؤهلة للاستثارة والتجاوب والانفعال بمجرد التلاوة وحدها دون الحاجة للتأهيل قبلها.

ومن الوسائل المؤثرة والميسرة للجميع التي يمكنها أن تهيئ القلب لاستقبال القرآن: الإلحاح الصادق على الله عَزَّوَجَلَّ بأن يفتح القلوب لأنوار القرآن، وكلما كان الإلحاح صادقًا كان القلب أكثر استعدادًا للانتفاع بالقرآن.

رابعًا: القراءة الهادئة الحزينة من المصحف بصوت مسموع وبترتيل

فمع الانشغال بالقرآن والمداومة على القراءة اليومية له، وتهيئة الجو المناسب للقائه يأتي الحديث عن الكيفية التي سنقرؤه بها في هذا الوقت الذي خصصناه له.

هذه الكيفية يسهل علينا تصورها إذا وضح أمامنا الهدف الذي نسعى إليه من لقائنا بالقرآن.

فإذا كنا نريد التغيير فلا بد من فهم القرآن بالعقل مع التأثر بالقلب، وهذا يستدعي منا سلامة النطق. فتلاوة القرآن حق تلاوته -كما يقول أبو حامد الغزالي- هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار. فاللسان يرتل، والعقل يُترجم، والقلب يتعظ[1].

فعلينا تعلم النطق الصحيح لآيات القرآن من خلال حلقات التعليم المنتشرة في المساجد وغيرها.

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (١/ ٤٤٢)، دار الحديث، القاهرة.

وعلينا كذلك القراءة الهادئة للآيات، فالقرآن كتاب موجز تحمل الآية الواحدة فيه معاني كثيرة، وكما يقول محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنك لو وضعت أصابع يدك على أي موضع في القرآن ثم نظرت إلى الكلمات التي وقعت عليها أصابعك، وحاولت أن تكتب بأسلوبك ما يعبر عن معانيها لكتبت الكثير والكثير[١].

من هنا كان من الضروري أن نقرأ الآيات قراءة هادئة بطيئة ليتم من خلالها فهم ما تدل عليه، ولقد كان هذا هو هدي رسولنا ﷺ في قراءته للقرآن. تقول السيدة حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**كان رسُول اللهِ ﷺ يقْرأُ بِالسُّورةِ فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها**»[٢].

ومما يلحق بهذا الجانب وبخاصة في البداية: عدم تحديد ورد من القرآن -كجزء مثلًا- نُلزم به أنفسنا، فمثل هذا التحديد يدفع صاحبه لسرعة القراءة؛ ومن ثَمَّ عدم الانتفاع بالقرآن.

وليكن التخصيص في الوقت لا في الكم، بمعنى أن يكون ورد القراءة لمدة ساعة يوميًّا على سبيل المثال.

ولقد سُئل الإمام مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قراءتهما واحدة، وركوعهما وسجودهما وجلوسهما، أيهما أفضل؟ قال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ: ﴿**وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ**﴾ [الإسراء: ١٠٦][٣].

خامسًا: التركيز في القراءة وعدم السرحان

عندما يقرأ الإنسان كلامًا ما في كتاب أو جريدة أو قُصاصة من الورق فإنه يُعمل

(١) انظر: النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب جواز النافلة قائمًا وقاعدًا (١/ ٥٠٧ برقم: ٧٣٣).

(٣) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص: ٨٣) - دار الكتاب العربي- بيروت.

عقله فيما يقرأه ليفهم المراد من الكلام، وهذا أمر بديهي عند الجميع، فالكل يعلم أنه لا جدوى لقراءة شيء باللسان والعين مع شرود العقل.

ومما يدعو للأسف أننا نطبق هذه القاعدة على جميع ما نقرؤه إلا مع القرآن، فبسبب ما ورثناه من أشكال التعامل الخاطئ مع هذا الكتاب أصبح هَمّ الواحد منا قراءة أكبر قدر من الآيات بغض النظر عن فهم ما يقرؤه أو عدم فهمه، المهم هو الأجر المترتب على القراءة، وكلما قرأنا أكثر فرحنا بما حققناه، فيكون ذلك دافعًا لمزيد من القراءة بالحناجر فقط.

والعجيب أننا جميعًا إلا من رحم الله قد استُدرجنا لهذا التعامل الشاذ مع القرآن والذي حرمنا من الانتفاع الحقيقي بمعجزته، ولو تجردنا من أسر القيود والأغلال التي ورثناها من الأجيال السابقة، وسأل كل منا نفسه: لماذا أنزل الله القرآن؟! هل أنزله فقط ليكون بابًا للأجر والثواب؟

لو كان الأمر كذلك لبحثنا عن أعمال أخرى تعود لنا بثواب أكبر من قراءة القرآن، وكتب فضائل الأعمال تدلنا على ذلك.

- **أخي: لماذا يُقرأ القرآن بدون فهم؟**
- **هل يُعقل أن يُقرأ كتاب كامل بدون فهم؟**

كيف استدرجنا الشيطان حتى جعلنا نقبل هذا التعامل الغريب مع أهم كتاب يوجد على ظهر الأرض؟!

كيف وقعنا في هذا الفخ ومنزل القرآن يقول لنا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤] أي ينبغي أن نتفكر فيما نقرأ.

مـــن هنا نقول: إن بداية الدخول إلى عالم القرآن ودائرة تأثيره تنطلق من ضرورة فهم ما نقرأ من آيات، وهذا بلا شك يستدعي منا التركيز عند القراءة وعدم السرحان: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ولأن الهدى والسـعادة والتغيير وسـائر الثمار المترتبة على الدخول لعالم القرآن تستلزم تدبره فإن الشيطان سيعمل جاهدًا على صرف الذهن إلى أمور أخرى ليُبعدنا عـــن فهم القرآن، والتفكر فيه باعتباره الخطـــوة الأولى المؤدية -بإذن الله- إلى تدبره، لذلك علينا ألا ننســـاق وراء وساوســـه ولنجتهد ألا يتسرب إلينا الشعور باليأس أو الإحباط كلما شرد الذهن في أمور الدنيا بل نثابر ونثابر، ونســـتعين بالله، ونستعيذ به من الشـــيطان حتى نتعود على التركيز مع القراءة. أمـــا الآيات التي شرد الذهن فيها فعلينا إعادتها مرة أخرى كما نفعل عند القراءة في أي كتاب آخر.

سادسًا: الإنصات التام أثناء التلاوة

أيضًـــا هناك وســـيلة في غاية الأهمية لا بـــد أن تصاحبنا أثناء تلاوتنـــا للقرآن، وهي الإنصات التام -قدر المســـتطاع- لما نقرأ أو نسمع من الآيات.. فما هو المقصود بالإنصات؟

الإنصـــات هو أعلى درجات تركيز المرء مع الصوت، ســـواء أكان هذا الصوت يأتيه من مصدر خارجي، أم كان يردده بلسانه، أم يقرؤه بعينه.

فقد يحدث أن يســـمع الشخص كلامًا وهو شارد الذهن يفكر في موضوع (ما)؛ مما يجعله لا يستمع لما يتلقاه بالكلية ولا يفهم المراد من الكلام.

وقد يحدث أن يســـمع كلامًا وهو يريد سماعه لكنه ليس بصافي الذهن، فهو هنا يســـتمع للكلام ويعرف محتواه، ولكنه غير مستغرق معه، كأن يفكر في موضوع آخر

في الوقت ذاته، أو يستمع إلى كلام آخر، أو يناجي من حوله، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧].

فإذا ما شعر المرء بأهمية ما يسمع أو يقرأ، وكان الكلام مما تشتد حاجته إليه:... تجده يُصغي سمعه وينصت، فينتقل من مرحلة الاستماع إلى مرحلة الإنصات والإصغاء؛ حيث التركيز التام لما يتلقى لدرجة الاستغراق والتوحد مع ما يتلقاه.

وهذا الصنف الثالث هو الذي حثنا الله -جل شأنه- على الاتصاف بحالهم عند التعامل مع القرآن العظيم، سواء أتلوناه بألسنتنا أم استمعنا إليه من غيرنا: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويقص علينا القرآن المجيد قصة الجن حين استمعوا القرآن للمرة الأولى، فقد أدركوا أهميته القصوى، وحاجتهم الماسة إليه فماذا قالوا؟! ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فحري بنا أن نفعل مثل ما فعلوا حتى ننتفع بالقرآن: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

سابعًا: الفهم الإجمالي للآيات

ونحن نطبق الوسائل السابقة عند تلاوتنا للقرآن قد نجد أمامنا كلمات غريبة لا نعرف معناها. فهل نتوقف عن القراءة ونبحث عن معناها في التفاسير؟!

مما لا شك فيه أن معرفة المعنى سيزيد الفهم، ويفتح آفاقًا جديدة للعقل في تعامله مع الآيات، ولكن في نفس الوقت لو تم ذلك مع كل كلمة غريبة تقابلنا فسينقطع اتصالنا بالقرآن؛ ومن ثَمَّ يضعف تأثرنا به، ويتحول انتفاعنا إلى انتفاع عقلي فقط،

وهذا جزء يسير من التغيير الذي نريده؛ فالتغيير الأهم هو ما يُحدثه القرآن في القلب من زيادة إيمان وتوليد الطاقة الدافعة للقيام بأعمال البر بسهولة ويسر، وهذا يستدعي منا الاسترسال مع القراءة، والسماح للآيات أن تنساب داخلنا، ويتصاعد تأثيرها على المشاعر شيئًا فشيئًا حتى تثيرها وتؤججها، فيؤدي ذلك إلى زيادة الإيمان، ودخول النور إلى القلب.

فإن قلت: فماذا نفعل إذن لكي يتم فهم الآيات وما تتضمنه من كلمات لا نعرف معناها، وفي نفس الوقت الاسترسال معها؟!

الحل هو أن نقرأ الآيات ونفهم منها المعنى الإجمالي الذي تدل عليه، ولا نقف عند كل كلمة، بل نأخذ المعنى الإجمالي من السياق، ولقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى هذه الطريقة بقوله: «**إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»(١).

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن للقرآن منارًا كمنار الطريق، فما عرفتم منه فتمسكوا به، وما يشبه عليكم -أو قال: شُبّه عليكم- فكِلُوه إلى عالمه(٢).

ولا بأس من القراءة في المصاحف التي تتضمن معاني الكلمات على الهامش -المعاني وليس تفسيرًا مختصرًا-، فننظر بسرعة إلى معنى الكلمة دون توقف عن الاسترسال في القراءة.

متى نرجع إلى التفسير؟

أما التفسير فله أهمية كبرى وسنكون في حاجة للرجوع إليه في بعض الأوقات،

(١) رواه الإمام أحمد (١١/ ٣٠٥ برقم: ٦٧٠٢)، وابن ماجه (برقم: ٨٥).
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٩٩).

ولكن لنجعل له وقتًا آخر غير الوقت المخصص لتلاوة القرآن، وذلك لتصحيح فهم خاطئ أو معرفة حكم من الأحكام الشرعية، فبديهي أن التفكر في القرآن ليس معناه استنباط أحكام منه؛ فهذه وظيفة العلماء. وتاريخ الأمة يشهد بانحراف البعض ممن استنبطوا أحكامًا شرعية من القرآن مباشرة دون أن يكونوا مؤهلين لذلك.

ثامنًا: التجاوب مع القراءة

مما يعين على التركيز مع القراءة: التعامل مع الآيات على حقيقتها في كونها خطابًا مباشرًا من الله عَزَّوَجَلَّ للبشر؛ لي ولك ولغيرنا.

هذا الخطاب يتضمن أسئلة: علينا أن نُجيب عنها؛ كقوله تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ [النمل: ٦١]، فنقول: لا إله إلا الله.

ويتضمن مطالب مثل الاستغفار والتسبيح والسجود، فعلينا حينئذٍ تنفيذها؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المزمل: ٢٠]، فنستغفر.

وفيه أدعية: علينا أن نؤمِّن عليها؛ كما نفعل مع الدعاء الذي في نهاية سورة الفاتحة.

وفيه مواضع تظهر آثار أسماء الله وصفاته علينا التسبيح عندها، وهكذا.

قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة فقرأها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلًا، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بآية سؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوَّذ، ثم ركع[1].

(١) رواه مسلم (برقم: ١٧٦٤)، والنسائي (برقم: ١٦٣٣)، وأبو داود (برقم: ٨٧١)، والترمذي (برقم: ٢٦٢).

تاسعًا: ترديد الآية أو الآيات التي تؤثر في القلب

الوسائل السابقة من شأنها أن تُهيئ العقل لحسن التفكر وفهم المراد من الآيات، ولكن ليس هذا فقط هو المطلوب من القرآن، فنحن نريد التغيير المتكامل في العقل والقلب والنفس، وهذا يستدعي -بجوار الفهم- التأثر والانفعال بالآيات والتجاوب معها.

فإن قلت: إن التأثر والانفعال ليس بيدي، فقد أستطيع أن أُلزم نفسي الوسائل السابقة من انشغال بالقرآن والجلوس في مكان هادئ لتلاوته، وعدم السرحان، والتجاوب مع القراءة وفهم المراد من الآيات، ولكني لا أستطيع أن أجعل قلبي يتجاوب وينفعل مع القرآن.

نعم، كلنا كذلك، وبخاصة أن قلوبنا قد أحاطتها حُجُب الغفلات، ولكن بالمداومة على الوسائل السابقة والمثابرة عليها وبخاصة التهيئة القلبية، ستأتي بلا شك لحظة أو لحظات تجد فيها آية من الآيات التي نقرؤها منفذًا وطريقًا يدخل منه نورها إلى القلب، فيؤثر في مشاعره ليحدث التجاوب والانفعال؛ ومن ثم زيادة الإيمان.

قد يتم هذا الأمر بعد مرور عدة أيام من بداية عودتنا إلى القرآن ومع آية واحدة فقط في كل ما نقرأ، فماذا نفعل عند حدوث ذلك؟

> **علينا أن نستثمر الفرصة التي جاءتنا أحسن استثمار، فهذه اللحظات من أهم لحظات حياتنا.. إنها مواسمنا وأعيادنا، ولم لا وأوقات حياة القلب هي أوقات الحياة الحقيقية، وبها يُقاس عمر الإنسان الفعلي.**

فإن كان الأمر كذلك فلنعمل على دخول أكبر قدر من النور إلى القلب، من خلال ترديد تلك الآية مرات ومرات إذا وُجد التجاوب، ولقد كان هذا هو هدي

رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

لو علم الناس!

يقول ابن القيم: فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لانشغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة. فقراءة آية بتفكر وتفهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف؛ يُردد أحدهم الآية حتى الصباح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهو قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨][1].

فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة[2].

إذن فهذه الوسيلة -ترديد الآية أو الآيات التي تؤثر في القلب- لَمِن أهم وسائل التغيير القرآني، فبالإضافة إلى فائدتها العظمى في زيادة الإيمان وطرد الهوى من القلب، فإن لها كذلك فائدة أخرى تتحقق من خلال تكرارها؛ حيث إن هذا التكرار يؤدي إلى ترسيخ معناها في العقل الباطن مما يُساعد في بناء اليقين الصحيح.

فإذا ما واظبنا على ذلك فستزداد بمرور الوقت عدد الآيات التي تؤثر في القلب مع كل تلاوة أو سماع للقرآن، فيزداد بذلك الإيمان أكثر وأكثر، ويتنور القلب حتى

(١) رواه الإمام أحمد (٣٥/ ٢٥٦ برقم: ٢١٣٢٨) وابن ماجه (١/ ٤٢٩ برقم: ١٣٥٠) والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٤ برقم: ١٠٨٤) والصغرى (٢/ ١٧٧ برقم: ١٠١٠).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٥٥٣، ٥٥٤)، دار ابن عفان- السعودية.

تدب الحياة في جميع جنباته؛ ليصبح قلبًا حيًّا سليمًا خاشعًا لربه خاضعًا له.

ومما يساعد على زيادة الخشوع في القلب واستسلامه لله: حُسن التعبير عن المعاني التي تتولد داخلنا عند تأثرنا بالآيات، وذلك من خلال البكاء والدعاء ومناجاة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

من هنا كان من المناسب أن نخصص قدرًا من قراءتنا في صلاة الليل، فنعيش مع الآيات في القيام، ونعبر عن معانيها في السجود: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦].

عاشرًا: تعلم الآيات والعمل بها

لكي يقوم القرآن بدوره الأساسي معنا في التذكرة والتوجيه، والاستقامة على الصراط المستقيم، والقرب الدائم من الله عَزَّوَجَلَّ، لا بد لنا من أن نسلم له قيادنا، وأن نُحسن الاستماع إلى توجيهاته، والعمل به قدر المستطاع.

والوسائل التسعة السابقة من شأنها أن تدخلنا إلى دائرة تأثير القرآن -بفضل الله- وتهيئنا لحُسن استقبال توجيهاته، والعمل بمقتضاها، ولكن القارئ لن يستطيع من خلالها أن يتوقف عند كل آية يقرؤها ليعرف من خلالها المطلوب عمله منها، وإلا ما تجاوزت قراءته بضع آيات في اليوم الواحد.

نعم يكفيه التغيير الذي تُحدثه الآيات التي يتلوها في تصوراته، والإيمان الذي يزيد في قلبه، والطاقة التي تتولد داخله وتدفعه للقيام بأعمال البر المختلفة.

ومع هذا كله كانت الوسيلة العاشرة التي إن استخدمناها حَسُن انتفاعنا بالقرآن،

ألا وهي تعلم الآيات وحفظها والعمل بها، وذلك بالتوازي مع الوسائل السابقة.

فكما أننا نُخصص وقتًا يوميًّا لتلاوة القرآن، علينا كذلك أن نخصص وقتًا آخر بين الحين والحين، ولو مرة كل أسبوع، نتعلم فيه بضع آيات من القرآن ثم نجتهد في حفظها، والعمل بما دلَّت عليه من خُلق وسلوك، أو ما اشتملت عليه من أوامر ونواهٍ، ولا ننتقل إلى غيرها إلا بعد التأكد من ممارسة العمل بما في تلك الآيات. وهذا ما كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول أبو عبد الرحمن السُّلمي: إنما أخذنا القرآن من قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخرى حتى يعملوا ما فيهن من العمل.

قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا، وأنه سيرث القرآن من بعدنا قوم يشربونه شرب الماء، لا يجاوز هذا، وأشار إلى حنكه[١].

وتكمن أهمية هذا الأثر في أن صاحبه وهو ليس من الجيل الأول، بل هو من التابعين، وينقل لنا الطريقة التي كانت سائدة بين الصحابة في حفظهم لآيات القرآن، وبعد أن اكتمل نزوله. فهذا عمر بن الخطاب ظل يتعلم ويحفظ في سورة البقرة اثنتي عشرة سنة، فلما أتمها نحر جزورًا، وهذا ابنه عبد الله يتعلمها في ثماني سنين[٢].

والجدير بالذكر أن هذه الخطوة في الانتفاع بالقرآن تحتاج قبلها إلى إعادة الثقة في القرآن إلى قلوبنا بقدر معتبر حتى يحسن بنا الانتفاع بها بإذن الله.. وقد تم تناول هذا بالتفصيل بفضل الله في (كتاب غربة القرآن – وكتاب الطريق الوحيد).

● ● ●

(١) فضائل القرآن للفريابي (ص: ٢٤١) – مكتبة الرشد – الرياض.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٤٠).

الموجه التربوي

مما لا شــك فيه أن القرآن الكريم هو المصدر الأساس والمتفرد للتغيير، وبدون الانتفاع الحقيقي به لن ينصلح حال الأمــة، ولن يظهر الجيل الرباني الموعود بالنصر والتمكين.

ولكن نظرًا لاختلاف أحوال الأشخاص الذين سيتعاملون مع القرآن من حيث الســن والثقافة البيئة و...، فمن المتوقع أن تختلف -بعض الشيء- طريقة استقبالهم وتعاملهم مع الأثر الضخم الذي سيحدثه القرآن في نفوسهم بإذن الله.

هذا الاختلاف قد يكون محدودًا، وفي الإطار العام للشــخصية المسلمة المعتدلة والمتوازنــة، وقد يكون فيه بعــض التجاوز، مما قد يُحدث انحرافًــا -ولو طفيفًا- في الســلوك. هذا الانحراف يحتاج إلى من يلحظه ويُقوِّمه حتــى يصفو النتاج. من هنا تظهر الحاجة الـمُلحة لوجود الموجه التربوي.

فمع الأهمية القصــوى للقرآن كأداة متفردة لإحداث التغيير الحقيقي والجذري في ذات المسلم، إلا أن هذا التغيير يحتاج إلى من يتابعه ويُشرف عليه.

ولقد كان رسول الله ﷺ يقوم بهذه الوظيفة العظيمة مع الصحابة -رضوان الله عليهم- وذلك من خلال التواجد المستمر بينهم، ومعايشتهم، ومتابعة أحوالهم.

كان ﷺ يتلــو عليهم القرآن ويعلمهم ما فيه من الحكمــة: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى**

﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

من سمات الموجه التربوي

من أهم سمات الموجه التربوي أنه شخص قد سبق غيره ممن سيقوم بالإشراف على أمر تربيتهم، فكما قيل في وصفه:

قد سلك الطريق ثم عاد ليخبر القوم بما استفاد

فلا بد للموجه التربوي أن يكون قد قطع خطوات معتبرة في تغيير ما بنفسه، وينبغي عليه أن يكون قد دخل إلى دائرة تأثير القرآن حتى صار لديه كالماء والهواء لا يستطيع العيش بدونه.

وينبغي للموجه التربوي أن تكون ظروف حياته تسمح له بالإشراف على أمر تربيتهم: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

الوظيفة الأولى للمُوجه التربوي

أهم وظيفة ينبغي أن ينهض بها الموجه التربوي مع الأفراد هي الإشراف على عملية التغيير التي يحدثها -بإذن الله- القرآن الكريم فيهم.

فإن قلت: ولكن ماذا يفعل إن كان الأفراد الذين سيتعاملون معه لم يدخلوا إلى دائرة تأثير القرآن الفذة؟!

في هذه الحالة تصبح الوظيفة الأولى للموجه التربوي هي دلالة الأفراد على كيفية الانتفاع بالقرآن في إحداث التغيير، وأن يأخذ بأيديهم إليه، وأن يستمر في متابعتهم وتذليل أي عقبة تحول بينهم وبين الانتفاع به.

وعلى الموجه التربوي التأكد أنه مهما كانت كفاءته فإنه لن يستطيع تغيير من معه

من الأفراد بدون القرآن؛ لأنه قد تم تكوينهم منذ الصغر، وترسخت داخلهم قيم ومعتقدات وتصورات مختلطة بين الخطأ والصواب.

فلو تربى فرد ما في بيئته على الشح والحرص على المال فمن الصعب تغيير طريقة تعامله مع المال بعد ذلك، حتى وإن قام على أمر تربيته بعد ذلك أفضل الموجهين التربويين؛ لأن الأمر أكبر منه بكثير، فلقد تشرب هذا الفرد حب المال والحرص عليه، وأصبح لهذا الحب جذور عميقة في ذاته، وكل ما يمكن أن ينجح فيه الموجه التربوي هو أن يجعله يقتنع بعقله المدرك الواعي بأهمية الإنفاق في سبيل الله؛ ومن ثمَّ يتحسن أداؤه الشكلي مع المال في بعض المواقف، ولكن تبقى الممارسات الحياتية اليومية كما هي.

ولكي نحل هذه الإشكالية لا بد من البحث عن قوة خارقة جبارة تقوم بإحداث زلزال في كينونة هذا الإنسان، وتهدم كل خطأ رسخ فيها، ولا يوجد على ظهر الأرض مثل هذه القوة الخارقة إلا قوة القرآن؛ التي قال الله عنها: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾** ﴾ [الحشر: ٢١].

لذلك فعلى الموجه التربوي -في بداية عمله مع الأفراد - أن يبذل قصارى جهده في الأخذ بأيديهم إلى القرآن، وأن يتأكد من دخولهم إلى دائرة تأثيره المزلزلة بإذن الله.

وغني عن البيان أنه لن يستطيع أن يفعل ذلك إن لم يكن قد سبقهم إليه.

جوانب الإشراف والمتابعة والتوجيه

بعد أن يتأكد الموجه التربوي من تحقق الوصال بين من معه من الأفراد وبين القرآن فإن عليه حُسن توجيههم نحو طريق الاستقامة دون إفراط ولا تفريط، وإليك -أخي القارئ- بعضًا من التفصيل حول هذا الأمر.

التوازن والاعتدال

قد تدفع قــوة الإيمان المتولدة من تلاوة القرآن المــرء لطلب القيام بأعمال كثيرة تتنافى مــع الطبيعة البشرية وما فيها من ضعف، وما لها من احتياجات. ومن هنا تأتي وظيفة الموجه التربوي الذي يصحح المفاهيم، ويوجه من معه للوســطية والاعتدال والاقتصاد في العبادة، مثلما فعل رسول الله ﷺ مع الثلاثة الذين ذهبوا لبيوت أزواجه ﷺ يســألون عن عبادته، فلما أُخبروا بها كأنهم تقالُّوها (أي: عدوها قليلة)، وقالوا: أيــن نحن من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدم مــن ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلي أبدًا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أُفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي أَخْشَــاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

فالموجه التربوي يعمل دائمًا على توجيه من معه على الوسطية والاعتدال وإعطاء كل ذي حق حقه.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل النبي ﷺ المســجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقــال: «**مَا هَذَا الْحَبْلُ؟**» قالوا: هذا حبــل لزينب، فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «**حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ**»(٢).

وتأمــل -أخي القارئ- هــذه القصة التي يرويها بطلها عبــد الله بن عمرو بن

(١) رواه البخاري في النكاح باب الترغيب في النكاح (برقم: ٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠) في النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه ووجد مؤونة.

(٢) رواه البخاري في التهجد باب ما يكره من التشدد في العبادة (برقم: ١١٥٠)، ومسلم (١/ ٥٤٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن.

العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ليزداد تأكدك بأهمية وجود الموجه التربوي وسط الأفراد وحُسن توجيههم نحو الوسطية والاعتدال وإن أدى ذلك إلى اقتصادهم في العبادة.

يقول عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ (أَيْ امْرَأَةَ وَلَدِهِ) فيسألها عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ، لِمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا، وَلِمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ. فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: **أَلْقِنِي بِهِ**، فَلَقِيتُهُ بَعْدُ، **فَقَالَ: كَيْفَ تَصُومُ؟** قُلْتُ: أَصُومُ كُلَّ يَوْمٍ. **قَالَ: وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟** قُلْتُ: كُلَّ لَيْلَةٍ. **قَالَ: صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً، وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**. قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، **قَالَ: أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ، وَصُمْ يَوْمًا**. قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. **قَالَ: صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ، صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً...»**[1].

وهذا أحد التابعين وهو سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله، فقدم المدينة، فأراد أن يبيع عقارًا له بها، فيجعله في السلاح والكُراع (الخيل)، ويجاهد الروم حتى يموت، فلما قدم المدينة لقي أناسًا من أهل المدينة، فنهوه عن ذلك، وأخبروه أن رهطًا ستة أرادوا ذلك في حياة النبي ﷺ فنهاهم نبي الله ﷺ. وقال: «**أَلَيْسَ لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ؟**» فلما حدثوه بذلك راجع امرأته، وقد كان طلقها، وأشهد على رجعتها... [2].

تعامل بحكمة وانصح بهدوء

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا ينبغي علينا الانزعاج والتوتر إذا ما حدث من

(١) رواه البخاري في مواطن كثيرة بلغت نحو تسعة عشر موضعًا: التهجد باب من نام عند السحر وباب ما يكره من قيام الليل لمن كان يقوم والباب بعده، وفي الصوم، وفضائل القرآن والنكاح (برقم: ٥٠٥٢).

(٢) رواه مسلم (برقم: ١٧٣٦) كتاب صلاة المسافرين.

بعضنا مثل ما حدث من بعض الصحابة -كما أشرنا- ولا ينبغي علينا أن نترك القرآن ونزهد في تحصيل الإيمان من خلاله بدعوى الخوف من التشدد، بل علينا أن نزداد تمسكًا بالقرآن، ونزداد كذلك حرصًا على التغيير من خلاله، مع حُسن توجيه بعضنا البعض نحو الاعتدال، وأن يتم تفعيل دور الموجه التربوي، وأن يكون كل منا رقيبًا على نفسه وعلى إخوانه، فإن رأى أحدنا من أخيه تشددًا في أمور لا ينبغي التشدد فيها سارع بالذهاب إليه وقام بنصحه وتوجيهه، وحبذا لو كان في صحبة أخيه الموجه التربوي.

ولعل ما حدث بين الصحابيين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما يؤكد هذا المعنى، فلقد آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة. فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. فقال له: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا جميعًا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»(١).

ومن وظائف الموجه التربوي

ضبط الفهم الصحيح عند الأفراد لمراتب الأحكام وفقه الأولويات مع النظرة الشاملة للإسلام:

(١) رواه البخاري (٤/ ٢٠٩) كتاب الصوم باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، وفي الأدب باب صنع الطعام والتكلف للضيف(١٠/ ٥٣٤).

تأمل معي قوله ﷺ وهو يوصي معاذًا بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أرسله داعيًا إلى اليمن: « **إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلُّوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ...** »[١].

إن فقه الأولويات والموازنات من أهم الأمور التي ينبغي أن يُعلِّمها الموجه التربوي لمن معه. فكثيرًا ما سيجد الفرد نفسه أمام مصلحتين متعارضتين، إن قام بواحدة فاتت الأخرى، فماذا يُقدم؟ وماذا يؤخر؟! هنا يأتي دور الموجه التربوي الذي يُحسن توجيه من معه للتعامل الصحيح في مثل هذه المواقف، فعلى سبيل المثال: عند التعارض بين السعي في خدمة الناس مع عبادة مثل الاعتكاف، أيهما نُقدم؟

يقول رسول الله ﷺ: «**وَلَأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ شَهْرًا**»[٢].

فما يتعدى نفعه للناس يُقدم على ما كان نفعه مقصورًا على الفرد.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، بشعب فيه عيينة من ماء عذبة، فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ**

(١) رواه البخاري في المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (برقم: ٤٣٤٧)، وفي الزكاة باب وجوب الزكاة (برقم: ١٣٩٥)، وفي التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي (برقم: ٧٣٧١).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٣٥)، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (برقم: ٣٦).

اللهُ لَكُــمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ؟ اغْزُوا فِي سَــبِيلِ اللهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَــبِيلِ اللهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»[١].

ومن وظائف الموجه التربوي:

شحذ همم الأفراد

لشحذ الهمم دور كبير في المسارعة لفعل الخيرات؛ لذلك كان على الموجه التربوي أن يُذكِّــر من معه دومًا بالوظيفــة التي خُلقنا لها، وبالهدف الذي نســعى لتحقيقه، وبالجزاء الذي ينتظرنا، فكل ذلك من شــأنه أن يستثير الهمم ويُقوي العزائم، ويدفع الجميع للتســابق لفعل الخــير، كما كان يفعل ﷺ، فعن أســامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رســول الله ﷺ قال: «**أَلَا هَلْ مِنْ مُشَــمِّرٍ لِلْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسَــنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ، وَفَاكِهَةٍ وَخُضْرَةٍ وَحَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِي حُلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ**» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: «**قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللهُ**» قال القوم: إن شاء الله، ثم ذكر الجهاد في سبيل الله»[٢].

ولك أن تتصور حال الصحابــة -رضوان الله عليهم- وتفاعلهم مع قوله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّســانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»[٣].

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله (برقم: ١٦٥٠) وقال: حسن، ومسند الإمام أحمد (٢/ ٥٢٤ برقم: ١٠٤٠٧)، والحاكم، والبيهقي.

(٢) رواه ابن ماجه كتاب الزهد باب صفة الجنة (٢/ ١٤٤٨برقم: ٤٣٣٢)، وابن حبان (١٦/ ٣٨٩ برقم: ٧٣٨١)، باب وصف الجنة وأهلها ، والطبراني في «الكبير» (برقم: ٣٨٨).

(٣) رواه البخاري في الدعوات فضل التسبيح وختم به الجامع الصحيح كتاب التوحيد باب قول =

ومن وظائف الموجه التربوي:

التذكير الدائم بحقيقة الدنيا

ومن وظائف الموجه التربوي التأكيد على الحقائق التي يؤكدها القرآن، ومن ذلك حقيقة الدنيا ومدى هوانها على الله، وأن قيمتها الحقيقة في كونها مزرعة للآخرة؛ ومن ثَمّ فلا مجال للتنافس على زينتها.

ولا يكتفي الموجه التربوي بالتذكير بحقيقة الدنيا، بل ويعمل على ربط حديثه بالواقع ليستقر المعنى في الذهن واليقين. وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ مع صحابته، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق والناس كنفتيه -أي عن جانبيه- فمر بجدي أسك ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ هَذَا بِدِرْهَمٍ؟**» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا إنه أسك. فكيف وهو ميت! فقال: «**فَوَ اللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»(١).

وعن عمرو بن عوف الأنصاري أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ**». فقالوا: أجل يا رسول الله. **قال: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ**

= الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ومسلم في الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٧٢ برقم: ٢٩٥٧)، وأسك يعني: قصير الأذن.

كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[١].

التربية الميدانية

مما لا شك فيه أن طبيعة دور الموجه التربوي تستدعي منه حضورًا مقبولًا مع حسن توجيه من معه كما قال تعالى: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [الكهف: ٢٨].

فمباشرة مهام التوجيه، وضبط الفهم، وفتح مجالات العمل، والحفاظ على الأفراد و... كل ذلك يستدعي من الموجه التربوي تطبيق قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**﴾ [الكهف: ٢٨].

ولقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد أصحابه ويتفقدهم، ويسأل عن غائبهم، ويسعى في قضاء حوائجهم، وحل مشكلاتهم.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال رجل: يا رسول الله! أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه، فقال: ما شأنك؟ قال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي فقد حبط عمله وهو من أهل النار، فأتى الرجل فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال النبي ﷺ: «**اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[٢].

---

(١) رواه البخاري في مواضع: الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (برقم: ٣١٥٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٧٣ برقم: ٢٩٦١)، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (المناقب) باب علامات النبوة في الإسلام (برقم: ٣٦١٣- ٤٨٤٦) في تفسير سورة الحجرات، ومسلم في الإيمان باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (برقم: ١١٩).

وعندما أُتي لرسول الله ﷺ بمثل بيضة من الدجاج من ذهب من بعض المغازي، فقال ﷺ: «**مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتِبُ؟**» قال سلمان الفارسي: فدعيت له، فقال: «**خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ**»(١).

مفهوم المتابعة

إن كان من مهام الموجه التربوي حسن توجيه الأفراد وتعهدهم، ومتابعتهم فيما يتعلق بأحوالهم وجوانب حياتهم المختلفة، فإن هذا ليس معناه المتابعة الدقيقة واللصيقة لكل منهم، والتأكد من تنفيذ توجيهاته بدقة، فهذه الطريقة في المتابعة لها العديد من السلبيات، فإنها وإن كانت ستضمن تنفيذ التوجيهات إلا أنها قد تتسبب في تحويل وجهة الأفراد ليصبح رضا الموجه التربوي هو الغاية مع رضا الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن سلبياتها كذلك أنها ستجعل الأفراد يتعودون على هذه الطريقة، فإذا ما فتر الموجه التربوي عن متابعتهم فتروا عن العمل.

الإيمان هو الضامن

فإن قلت: إن كانت المتابعة الدقيقة للأفراد لها هذه السلبيات، فما الضامن إذن الذي يضمن للموجه التربوي حسن تنفيذ الأفراد للتوجيهات المختلفة؟

إنه الإيمان القوي الذي سيتولد بمشيئة الله من عملية التغيير القرآني، فالإيمان هو أكبر ضامن يضمن تنفيذ الخطط والتوجيهات مع عدم إغفال دور المتابعة العامة التي تتعرف على الواقع، فتبني عليه توجيهات المستقبل.

والناظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وطريقة تربيته لأصحابه يجد أنه كان يوجههم

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٤١-٤٤٤)، والبزار في البحر الزخار (٦/ ٤٦٢ برقم: ٢٥٠٠) والطحاوي في مشكل الآثار (برقم: ٧٤٧٢).

لأعمال الخير ثم يتركهم لإيمانهم، فيدفعهم هذا الإيمان للقيام بهذه الأعمال والاستمرار عليها، فعندما بلغ عبد الله بن عمر قوله ﷺ في شأنه: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ**» قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك اليوم لا ينام من الليل إلا قليلًا[(١)].

وعندما قال رسول الله ﷺ لعلي وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ، إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَاحْمِدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ**» قال علي: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ، فقيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين[(٢)].

ففي هذه المواقف رأينا التوجيه النبوي للأفراد، ورأينا مدى تصميمهم على تنفيذه طيلة حياتهم دون أن تكون هناك متابعة لصيقة ومستمرة لهم قد تدفعهم لتنفيذه.

من هنا يتأكد لدينا أن أفضل ضامن يضمن تنفيذ التكاليف والتوجيهات هو الإيمان الذي ينبغي أن يملأ قلب الفرد، وهذا هو دور القرآن الذي يُعد بمثابة نبع متجدد للإيمان كما قال الله تعالى: ﴿ **رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

قال محمد بن كعب القرظي: إن المنادي هو القرآن، فليس كلهم رأى النبي ﷺ.

المتابعة بين الإفراط والتفريط

ليس معنى القول بأن الإيمان هو الضامن لتنفيذ التوجيهات والتكاليف أن يترك الموجه التربوي تعاهد من معه، فلا يتعرف على المستوى الذي وصلوا إليه، أو

(١) متفق عليه، البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ (المناقب) باب مناقب عبد الله بن عمر (برقم: ٣٧٣٩)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله بن عمر (٤/ ١٩٢٧ برقم: ٢٤٧٨، ٢٤٧٩).

(٢) البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب علي بن أبي طالب (برقم: ٣٧٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء باب التسبيح أول النهار وعند النوم (برقم: ٢٧٢٧).

المشكلات والعقبات التي تواجههم، فيختزل دوره في حيز التوجيه العام فقط. ليس هذا هو المقصد مما قيل في الأسطر السابقة عن مفهوم المتابعة، بل المقصد أن تكون المتابعة وسيلة للوصول إلى أحسن النتائج مع ترك مساحة للأفراد يتحركون من خلالها في الإطار العام الذي يحدده لهم الموجه التربوي.

نعم، سيظهر من بعضهم تشدد، أو فتور، أو يقعون في أخطاء... وهنا تبرز قيمة المتابعة في ضبط هذه الأمور، وتصحيح المسار، فينتج عن ذلك الوصول إلى الأهداف المرجوة من خلال الأفراد أنفسهم، لا من خلال سير الموجه التربوي معهم خطوة بخطوة، ومثال ذلك: لو أن إدارة مدرسة من المدارس طلبت من المدرسين أن يوجهوا تلاميذهم لعمل بحث في موضوع ما. فذهب أحد المدرسين إلى فصله وأخبر تلاميذه بالبحث المطلوب، وبدأ في كتابة البحث مع كل واحد منهم؛ يراجع معهم كل كلمة، ويضع لهم العناصر، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة فيه، وظل على ذلك حتى انتهوا جميعًا من أبحاثهم في الموعد المحدد.

ومدرس آخر ذهب إلى فصله وأخبر تلاميذه بالبحث المطلوب، وبيَّن لهم عناصر البحث، ودلهم على مراجعه، ثم تركهم، ليطالبهم عند نهاية المدة المحددة بالأبحاث التي كتبوها.

ومدرس ثالث بعد أن أخبر تلاميذه بالبحث المطلوب، بين لهم عناصر البحث، والخطط المقترحة لتنفيذه، والمراجع التي تخدمه، ولم يكتفِ بذلك، بل كان كل فترة من الزمن يقرأ ما كتبوه بأنفسهم، فيرفع واقعهم، ويتعرف على من يسير في الطريق الصحيح، ومن توسع في بعض النقاط أكثر من اللازم، ومن انحرف بالكتابة في غير موضوع البحث، ومن تسرع في الكتابة دون سبر أغوار العناصر، و... فيقوم من خلال هذا الواقع بحسن توجيه كل فرد على حدة بما يتناسب مع واقعه ليصل بالجميع إلى الهدف المنشود.

أي النماذج أصح؟

مما لا شك فيه أن تلاميذ المدرس الأول سينجحون في تقديم أبحاثهم في الوقت المحدد، وستكون أبحاثًا قيمة، لكنهم كأفراد لم يكتسبوا مهارة جديدة، بل سيصبحون بحاجة إلى من يسير معهم خطوة بخطوة كلما هموا للقيام بعمل ما.

وبالنسبة لتلاميذ المدرس الثاني فنتائجهم غير مضمونة واحتمالية وقوعهم في أخطاء كبيرة، فلقد تركهم مدرسهم يجتهدون بمفردهم دون أن يعمل على تقويم مسارهم.

أما تلاميذ المدرس الثالث فقد نجحوا في تقديم أبحاث قيمة مع اكتسابهم خبرة كيفية البحث بمفردهم والوصول إلى المعلومة ووضعها في مكانها الصحيح... كل ذلك حدث لأن مدرسهم تركهم يقومون بأداء العمل بمفردهم مع متابعتهم كل فترة وتقييمه لأعمالهم، وتوجيههم لكيفية تصويبها وتقويمها.

وهذا هو المطلوب من الموجه التربوي؛ عليه أن يُحسن التوجيه وعرض المطلوب في البداية، ثم يترك من معه ليقوموا بتنفيذ ما طُلب منهم، مع رفع واقعهم كل فترة وتقييمه وإرشادهم لكيفية تصويبه، وهكذا حتى يصلوا إلى أهدافهم، ويكونوا قد تعودوا الاعتماد على أنفسهم.

فإن كان هدف الموجه التربوي تعريف من معه من الأفراد بربهم، وربطهم به سبحانه من خلال القرآن، ومن خلال الكون المحيط، فعليه أولًا أن يشرح لهم كيفية استخراج جوانب المعرفة من القرآن بصفة عامة، ثم يأخذ جانبًا من الجوانب كالتعرف على الله المنعم، فيبسط فيه القول، ويُعدد لهم بعضًا من نعم الله، ويدلل على ذلك بالآيات المناسبة، ثم يطلب منهم استخراج النعم من سورة من سور القرآن، ويتأكد

من حُسن تطبيقهم للمعنى المطلوب، ثم يتركهم -عدة أيام- بعد أن يطلب منهم استخراج الآيات الدالة على النعم من وردهم القرآني، وكذلك النعم التي اجتباهم الله بها بصورة شخصية، وعندما يلتقي معهم بعد ذلك ينظر ما استخرجوه من القرآن، ومن تفكُرهم في الكون والنفس، فيصوب ما يحتاج إلى تصويب، وينبه إلى ما لم يُنتبه إليه، ويؤكد على المعنى مرة أخرى، مع شحذ هممهم وتفقد أحوالهم.

ويكرر ذلك معهم مرة ومرة حتى يتأكد من حُسن تعاملهم مع القرآن ونجاحهم في استخراج جوانب المعرفة منه، وكذلك حُسن تعاملهم مع أحداث الحياة. فإذا انتقل بعد ذلك إلى جانب آخر من جوانب المعرفة كان تطبيقه أيسر من السابق، وعندما يترك هذا الموضوع وينتقل إلى موضوع آخر، يتركه وقد تأكد من إجادتهم للتعامل معه من خلال القرآن، ومن خلال الكون المحيط، واستطاعتهم استخراج جوانب المعرفة من الآيات وربطها بأحداث الحياة.

ومع ذلك فعليه كل فترة من الزمن أن يتأكد من استمرار نهلهم من منبع القرآن وظهور آثار ذلك على أعمالهم.

والملاحظ في سيرة رسول الله ﷺ أنه كان يوجه أصحابه إلى منابع الإيمان، ثم يتفقدهم ويتابعهم ويطمئن على مدى تعاملهم معها. ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومًا: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ جَنَازَةً؟**»، قال أبو بكر: أنا، قال: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**»، قال أبو بكر: أنا. قال: «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ مَرِيضًا؟**»، قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1].

(١) رواه مسلم في الزكاة باب من جمع الصدقة وأعمال البر (برقم: ١٠٢٨) وفي فضائل الصحابة =

انتبه!

ومع هذا الدور المهم للموجه التربوي إلا أنه يأتي مصاحبًا لعملية التغيير الحقيقية التي يقوم بها القرآن، فلا بديل لدخول الأفراد إلى دائرة التأثير القرآني ليباشر الموجه التربوي بعد ذلك عمله في تجويد وتحسين الثمار الناتجة عن عملية التغيير.

من هنا يتضح لنا أن الموجه التربوي الناجح هو الذي يدل الناس على الله ويدعوهم إلى الدخول لمأدبة القرآن، ويأخذ بأيديهم إليها، ويتركهم أمامها ليذوقوا حلاوتها بأنفسهم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

فالموجه التربوي إذن دلَّال يدل من حوله على منابع الإيمان وعلى ما تذوَّقه من القرآن، ففيوضات القرآن لا حدود لها، وتسع جميع الخلق، بل إن من علامة صدق الموجه التربوي انطلاق الأفراد في التعامل مع القرآن وتعرفهم على أشياء لم يعرفها ولم يسبق له هو معرفتها.

أما الموجه التربوي الذي يقف في منتصف الطريق بين من معه من ناحية، وبين القرآن ومنابع الإيمان من ناحية أخرى -بمعنى أنه يسقيهم بيده بعضًا مما استفاده هو من القرآن- فهذا الموجه التربوي قد جانبه الصواب في أدائه لوظيفته، ولن يكون له تأثير كبير وجوهري ومستمر على من معه؛ لأنه قد ربطهم به، ولم يعلمهم كيف ينتفعون بالقرآن بمفردهم.

أما إذا أفسح لهم الطريق وأخذ بأيديهم حتى يجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع القرآن؛ ينهلون من نبعه، ويتمتعون بحلاوته، ويدخلون إلى دائرة تأثيره... كل ذلك

= باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد الحديث (برقم: ٢٣٨٧).

يحدث لهم، وهو بينهم يوجه الطاقات، ويضبط الفهم ويشحذ الهمم... فإنه بذلك يكون قد قام بمهمته خير قيام، وأنتج للأمة نواة الجيل القرآني الذي انتظرته طويلًا، فتجتمع حوله، وتسير وراءه تقيم الدين، وتعيد الخلافة وتسود العالم، وما ذلك على الله بعزيز: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

الإيمان أولًا

إذن فالموجه التربوي الناجح هو الذي يبذل جهدًا كبيرًا في بداية عمله مع من معه في توجيههم لمنابع الإيمان -والتي يقف على رأسها القرآن- ويتأكد من ورودهم لها ونهلهم منها، وظهور آثار زيادة الإيمان عليهم. فإن تم ذلك أصبحت مهمته سهلة، ويسيرة في التوجيه، وضبط الفهم، وتنظيم الحركة، فعندما توقد شعلة الإيمان في القلب وتستمر في النمو والزيادة فإن هذا من شأنه أن يجعل الفرد في حالة دائمة من الانتباه، والتذكر بما ينبغي عليه أن يفعله، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإيمان الحي في القلب يولد طاقة وقوة دافعة داخل الفرد تدفعه للقيام بأعمال البر وكل وما يريده الله، بسهولة ويسر.

فإن كان على الفرد أن يتجه قلبه لله، وأن يتخلق بأخلاق المؤمنين، وأن يكتسب مهارات تعينه على القيام بدوره في الحياة، فالطريقة السهلة لذلك هي حُسن عودته للقرآن، وورود منابع الإيمان المختلفة لتصبح هذه الأمور بمثابة ثمار طبيعية لحياة القلب وتمكن الإيمان منه كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

فالإيمان هو الشجرة الطيبة التي تؤتي ثمارها في كل وقت، وكل اتجاه. فعلى سبيل المثال: التخلق بصفات المؤمنين من صدق، ووفاء، وثبات، وتضحية في سبيل الله، وورع، وكف للأذى، وإحسان، وترك للآثام...

كل هذه الأخلاق وغيرها ثمار طبيعية للإيمان الحي في القلب، وعلى قدر قوته يكون اكتمالها، كما قال رسول الله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا**»(١).

إذن فمن يُرد التخلق بصفات المؤمنين فعليه بمنابع الإيمان أولًا، وعلى رأسها القرآن، أما أن يتم تجزئة هذه الأخلاق وتقسيمها ومحاولة التخلق بخلق منها كل فترة، فهذا طريق طويل من الناحية النظرية، ومن الصعب تحقيقه من الناحية العملية بدون البدء بالإيمان.

هذا بالنسبة للأخلاق، أما بالنسبة لعبادات القلوب، من توكل على الله، وأنس به، وحب له، ورجاء فيه، وإخلاص، وإنابة، وتعظيم وخشية، وزهد في الدنيا، و... فهذه ثمار لا يمكن القفز إليها أو اكتسابها بطريقة مباشرة، بل هي نتيجة طبيعية لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ.

فالتوكل على الله -على سبيل المثال- ثمرة لمعرفة الله الحي، القيوم، العليم،

(١) الترمذي في الرضاع باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (برقم: ١١٦٢)، وأبو داود في السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (برقم: ٤٦٨٢)، والدارمي في الرقاق باب في حسن الخلق (برقم: ٢٧٩٢).

القديـــر... وعلى قدر تمكن هـــذه المعارف من القلب تكون عبوديـــة التوكل بتلقائية ودون تكلف.

وكما مر علينا فإن أفضل طريقة للتعرف على الله هي القرآن، مع ربط هذه المعرفة بأحداث الحياة قدر الإمكان. هذه المعرفة يمكن الوصول إلى الحد الأدنى منها في فترة وجيزة بإذن الله.

أما اكتساب المهارات التي يحتاج إليها الفرد، كتعلم مهارة التهديف التربوي، أو إتقان مهارة إدارية، أو تعلم لغة من اللغات، فإنها بالفعل تتطلب تدريبًا وتربية حتى يتم اكتســـابها، مع الأخذ في الاعتبار أن الإيمان الحي يدفـــع صاحبه لبذل المزيد من الجهد الذي يختصر فترة التدريـــب، وكذلك يصحح النية ويجعلها خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، وليس أدل على ذلك من تعلم زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الســـيريانية في سبعة عشر يومًا، عندما أمره الرسول ﷺ بتعلمها، وصار ماهرًا بها!

• • •

المحاضن التربوية

تبين لنا من خلال الصفحات السابقة أهمية وجود الموجه التربوي حتى تكون نتيجة التغيير الذي يُحدثه القرآن في الاتجاه الصحيح.

فإن قلت: وأين أجد الموجه التربوي الذي يقوم بهذا الدور؟!

نعم، قد لا نجد مثل هؤلاء الموجهين التربويين الدالين على الله وعلى كتابه، ولكن مع وجود المنهج، ألا وهو القرآن، ومع فهم طبيعة دور الموجه التربوي -كما سبق بيانه- يمكننا أن نستعيض عن دوره -ولو بصفة مؤقتة- من خلال تعاهد بعضنا البعض بالنصح والإرشاد، وتبادل الخبرات وتبني الأدوار التي يقوم بها الموجه التربوي، وحبذا لو كان بيننا من سبقنا إلى الدخول لمأدبة القرآن ليوفر علينا الوقت والجهد.

هذا التصور والذي يمكننا أن نطلق عليه «المحاضن التربوية» قد يصلح لأن يكون بديلًا للموجه التربوي الذي قد يعِزُّ وجوده بيننا، فما لا يُدرك كله لا يُترك كله، مع العلم بأن تلك المحاضن وسيلة يجتمع فيها من يريد أن يغير ما بنفسه ولديه الرغبة في ذلك، على أن يكون القرآن هو محورها، بالإضافة إلى كل ما يلحق به من منابع الإيمان، ولسنا نعني بذلك أن يتم فيها الحديث فقط عن تفسير الآيات، فالتفاسير

كثـيرة ومتواجدة في كل البيوت، بل المقصد هو إرشـاد الأفـراد إلى كيفية الانتفاع بالقرآن وتذوق حلاوته، كما سبق بيانه في كيفية التعرف على الله من خلال القرآن، مع العلم أنه بالمداومة على استخدام وسائل الانتفاع بالقرآن، والتي ذُكرت في الصفحات السابقة، سيبدأ الأفراد تذوق حلاوة الإيمان، لتكون هذه المحاضن وسيلة لتبادل هذه الأذواق وشحذ الهمم، وفتح آفاق أوسع للتعامل مع الآيات.

وظيفة المحاضن

إذن فالمحاضـن التربوية يمكن أن تقوم بـدور الموجه التربوي، مع الأخـذ في الاعتبار أنـه مع وجود القرآن كمحور أسـاسي لها، فإن المطلوب منها كذلك أن تقوم بضبط الفهم وحُسـن توجيه طاقات الأفراد المتولدة من معايشة القرآن للقيام بأعمال البر المختلفة في شتى المجالات، مع مراعاة ظروف الفرد وإمكاناته.

وفي المحاضن التربوية يتم تدارس بعض كتب العلم النافع التي تعين الفرد على تعميق فهمـه للقرآن، وتضبط له عملية التغيير، على أن يتم ربط هذه الكتب بالقرآن قدر المسـتطاع، وألا تطغى عليه؛ فالقرآن أولًا، أما تلـك الكتب فما هي إلا مراجع بجواره نستخدمها من أجل أن تخدمه وتخدم عملية التغيير، فالسيرة النبوية على سبيل المثال تُدرس كنموذج تطبيقي للآيات، والسنة تُدرس كشارحة للقرآن مبينة لما أُجمل فيه، ... وهكذا.

هذا الشـكل المقترح للمحاضن التربوية والتي يمكن أن تتم في البيت بين الأب وأبنائه، أو بين الأصدقاء بعضهم مع بعض، لها امتداد عبر تاريخ الأمة، فقد أنشـأها رسـول الله ﷺ في مكة، في دار الأرقم بن أبي الأرقـم، وكان القرآن هو المنهج الذي

يتدارسونه ويعيشون معه، أما توجيهاته ﷺ فكانت بمثابة الشرح والبيان لآيات القرآن، مع ضبط الفهم، وتنظيم حركة الأفراد، وكيف يتعاملون مع مستجدات الحياة.

الدعوة إلى القرآن

ومع أهمية وجود المحاضن التربوية للإشراف على عملية التغيير القرآني للأفراد، إلا أنه ينبغي أن يكون لها دور آخر في توجيههم لدعوة الناس؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يريد من الأمة -بصفة عامة- أن تتغير من داخلها، وتترك كل ما يبغضه، لكي يُغير سبحانه ما حاق بها ونزل بساحتها. من هنا كان من الضروري تبليغ الناس بذلك، ودعوتهم إلى العودة الصحيحة للقرآن، والأخذ بأيديهم إلى مأدبته، فينصلح حالهم، ويعودون إلى ربهم، ويمارسون الوظيفة التي خُلقوا من أجلها، فيتحقق بذلك الوعد الذي وعدنا الله به: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥].

• • •

هيا إلى العمل

إن كان القرآن هو مشروع الأمة الإسلامية للنهضة، وهو السبيل لعودة مجدها وعزها، فلا بد أن ينتفض كل غيور ويبدأ بنفسه ويعود إلى القرآن، ويُقبل عليه بكيانه كله، حتى إذا ذاق حلاوته، وازداد تحرك قلبه مع آياته، وشعر بنوره يسري في كيانه، وأصبح لا يستطيع الاستغناء عنه، فهو بذلك قد وضع قدمه في بداية الطريق فعليه حينئذٍ أن يتحرك بهذه الدعوة -دعوة الانتفاع بالقرآن- في كل مكان، ومع كل من يعرفه: مع أبيه وأمه، وزوجته وأولاده، وأقاربه وجيرانه، ومعارفه وزملائه.

عودة الروح

لا بد أن نعمل على تبليغ هذه الدعوة في كل مكان، وأن نرشد الناس إلى كيفية العودة إلى القرآن والانتفاع الحقيقي به، وأن نُلح عليهم بذلك، وشيئًا فشيئًا ستسري هذه الدعوة في أعماق الأمة، وستجد لها -بمشيئة الله- آذانًا مصغية، ولم لا وهي دعوة تؤيدها الفطرة، ولا تجد معارضة من أحد؟! وفوق هذا كله فهي تستوعب الجميع، ولا تتسبب في انزعاجهم أو نفورهم منها، أو خوفهم من تبعتها.

سيستجيب لها -بإذن الله- الكثيرون، وستسري روح القرآن في الأمة بالتدريج، وسيكون -لا محالة- من بين المستجيبين لها من يريد التضحية من أجل دينه، ومن أجل التمكين لشرع الله في الأرض. فليكن أمثال هؤلاء هم اللبنات التي تُشكل مع غيرهم -من السابقين- الصف المسلم الذي يقود الأمة بالقرآن، ويبذل الغالي والرخيص من أجل إيقاظ النائمين، وتنبيه الغافلين، وإرشاد الحائرين، ومداواة المعتلين بالدواء الرباني الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ ليكون للأمة جمعاء هدى وشفاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

الفرج قريب

فلنبدأ من الآن، ولنعد إلى القرآن، فكفى ما مضى من أعمارنا ونحن بعيدون عن هذا الكنز العظيم، ولنستبشر جميعًا، فما هي إلا سنوات قليلة نبذل فيها جهدنا ونخلص فيها لربنا حتى نجد -بإذن الله- نور القرآن يسري في النفوس، ليبدأ التغيير في جنبات الأمة، ويصطلح الناس مع ربهم، ويعودون إليه. لتبدأ تبعًا لذلك تباشير الفجر في البزوغ، وتُشرق شمس العزة من جديد: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

إنها ليست أحلامًا، بل حقائق سندركها بمشيئة الله إن أحسنَّا العودة إلى القرآن، وأخلصنا في الدعوة إليه، أما كيفية حدوث ذلك فلا تَسَل عنها، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾؟ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧].

لا تَسَلْ عن الطريقة التي سيُمكِّن بها الله جيل القرآن، فالكون كونه، والملك ملكه، يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، له جنود السماوات والأرض: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

ليكن همنا هو تنفيذ ما طلبه الله منا، ولنترك له أمر النصر والتمكين، أليس هو سبحانه الذي مكَّن بني إسرائيل في الأرض بعد أن كانوا مستضعفين؟ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

فلننشغل بتغيير ما بأنفسنا، والاعتصام بحبل الله، ودعوة الناس إليه، ولننتظر الفرج القريب: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢١- ١٢٣].

وفـي النهايــة

أخي المسلم، أختي المسلمة في كل مكان:

هذا هو الطريق.

وهذا هو الحبل الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ لينتشلنا من الغرق، فماذا نحن فاعلون؟

هيا بنا نُقبل على القرآن ونتمســك به، ونترك أنفسنا له، وندخل إلى دائرة تأثيره قبل فوات الأوان.

> **هيــا الآن نتناول مصاحفنا، ونبدأ رحلــة التغيير، فنصر الله قريب، أقرب مما نتخيل، لكننا لن نراه إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا.**

- أخي: لقد طال ليلنا، ومللنا من رؤية مشاهد الذل والهوان.
- أخي: إن كنت تحب نفســك وأهلك وأمتك، وقبل ذلك ربك ورسولك، فابدأ من الآن، وعد إلى القرآن واستمسك به، واجعله أمامك وإمامك.
- **أخي: لنكف عن البكاء والأسف على أحوال الأمة، ولنبدأ العمل.**

وأُبشرك بأنه لن يمــضيَ علينا وقت طويل حتى نجد أنفســنا وقد هيمن علينا القرآن، واختلط بلحمنا ودمنا، وذقنا حلاوة الإيمان من خلاله.

ساعتها لا تنسني من دعوة صادقة يُصلح الله بها شأني، ويغفر ذنبي، ويثبتني على الحق، ويُحسن خاتمتي، وأن يجمعني وإياك إخوانًا على سرر متقابلين.

والحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

• • •

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

المقدمـــة ٥

القـــــادر المقتـدر

لا حول ولا قوة إلا بالله ٩
العليم الرقيب ١٠
القدرة الإلهية ١١
ما شاء الله كان ١١
البداية من العبد ١٢
تأملات في آية التغيير ١٣
الأمل في الله وحده ١٤
هل نترك الأسباب؟ ١٥
علاقة الأسباب المادية بالنصر ١٨
تغيير ما بالنفس من أهم الأسباب ١٩
الخلاصة ٢٠

ما المقصود بالتغيير؟

معنى العبودية ٢١
امتحان العبودية ٢٢
شروط الولاية ٢٣
الكرامة والاستقامة ٢٤
ومن أوفى بعهده من الله ٢٥
نظرة على الواقع ٢٥
حب الدنيا ٢٧
الجسد الواحد ٢٨
الصالح المصلح ٣٠
وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم ٣١
أين أثر الدعاء؟ ٣١
أستاذية العالم ٣٢

عوائـــــق التغيير

نظرة إلى واقعنا ٣٥
كيف يتم السلوك؟ ٣٦
المحور الأول: العقل ٣٨
الشعور واللاشعور ٣٨
كيف يتكون اليقين؟ ٣٩
علاقة اليقين بالتغيير ٤٠

وسائل تكوين اليقين ٤١
خطورة التلفاز والهواتف الذكيَّة والأجهزة الحديثة ٤٢
دور المدرسة ٤٣
المحور الثاني: القلب **٤٤**
التشخيص ٤٦
المحور الثالث: النفس **٤٧**
الصنم الداخلي ٤٧
الخلاصة ٤٨

من أين نبدأ؟

صعوبة التغيير ٥١
لكل داء دواء ٥٢
نماذج عملية ٥٣
كيف حدثت المعجزة؟ ٥٤
الموجه التربوي ٥٥

هـــذا القـــرآن

طريق الاستقامة ٥٧
القرآن وجمع الكلمة ٥٨
حالنا مع القرآن ٦٠
ضرورة العودة إلى القرآن ٦١

كيفية التغيير القرآني

ألا يكفي وصف الله لكتابه؟! ٦٣
القرآن والعقل ٦٤
تكوين العقلية المتوازنة ٦٦
بناء اليقين الصحيح ٦٦
القرآن والقلب..... ٦٧
الإيمان والهوى ٦٧
القرآن والنفس..... ٦٩
معرفة الله..... ٧٠
التعرف على الله من خلال القرآن ٧١
معرفة النفس ٧٢
الخلاصة..... ٧٣

كيف ننتفع بالقرآن؟

مشروع النهضة ٧٦
وسائل مقترحة ٧٦
أولًا: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح ٧٨
ثانيًا: الانشغال بالقرآن والمداومة على قراءته يوميًّا..... ٧٩
وصية أبي الدرداء ٨٠
دفع شبهة..... ٨١

ثالثًا: التهيئة الذهنية والقلبية..... ٨٢
رابعًا: القراءة الهادئة الحزينة من المصحف بصوت مسموع وبترتيل .. ٨٤
خامسًا: التركيز في القراءة وعدم السرحان ٨٥
سادسًا: الإنصات التام أثناء التلاوة ٨٧
سابعًا: الفهم الإجمالي للآيات ٨٨
متى نرجع إلى التفسير؟ ٨٩
ثامنًا: التجاوب مع القراءة ٩٠
تاسعًا: ترديد الآية أو الآيات التي تؤثر في القلب..... ٩١
لو علم الناس!..... ٩٢
عاشرًا: تعلم الآيات والعمل بها ٩٣

الموجه التربوي

من سمات الموجه التربوي ٩٦
الوظيفة الأولى للمُوجه التربوي ٩٦
جوانب الإشراف والمتابعة والتوجيه ٩٧
التوازن والاعتدال ٩٨
تعامل بحكمة وانصح بهدوء ٩٩
ومن وظائف الموجه التربوي: ضبط الفهم الصحيح عند الأفراد
لمراتب الأحكام وفقه الأولويات مع النظرة الشاملة للإسلام ١٠٠
ومن وظائف الموجه التربوي: شحذ همم الأفراد ١٠٢

ومن وظائف الموجه التربوي: التذكير الدائم بحقيقة الدنيا ١٠٣
التربية الميدانية ١٠٤
مفهوم المتابعة ١٠٥
الإيمان هو الضامن ١٠٥
المتابعة بين الإفراط والتفريط ١٠٦
أي النماذج أصح؟ ١٠٨
انتبه!! ١١٠
الإيمان أولًا ١١١

المحاضن التربوية

وظيفة المحاضن ١١٦
الدعوة إلى القرآن ١١٧

هيا إلى العمل

عودة الروح ١١٩
الفرج قريب ١٢٠
وفـــي النهايـــة ١٢١
الفهرس ١٢٣

• • •